AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00972 7714

03-84266
Pvt oct 16

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

Y

ال

School of Oriental Studies
of
American University at Cairo

المشكلات

مشكلة اللغة العربية

لماذا اخفقنا في تعليمها ؟ وكيف نعلمها

PJ
6066
A7
1945

'Arafah, Muhammad
Mushkilat al-Lughah al-'arabiyah

محمد عرفه

عرض جماعة كبار العلماء

مطبعة الرسالة

492.7
Ar 11 p
SOS

٤١٨
ص.٢٩٤

28286

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أساليبنا فى الحياة ، الموروث منها ، احترامنا إياه ، عدم محاولة تغييره ، عدم نقده تحت ضوء العلم ، عذر المتقدمين فى اصطناع هذه الأساليب ، عدم عذرنا ، أخص خصائص هـذا العصر ، اعتزازه بالعلم ، الجديد من أساليبنا ، تقليدنا فيه دون بحث ، عدم استشارة العلم فيه ، العزم على أن أستشير العلم فى أساليبنا ، البدء بأسلوب تعليم اللغة العربية .

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، وبعد .

فى مصر وفى بلاد الشرق الإسلامي أساليب فى التعليم والتربية ، وفى الاجتماع والسياسة والاقتصاد ، لو استشير فيها العلم لنادى باصلاحها ، ولو سرنا وراءه لأصلحها ، أو لهدانا إلى ما هو خير وأقوم منها .

هـذه الأساليب ترمى الى غايات خاصة ، وأغراض معينة ، ولـكنها

لا تؤدى اليها ، ولاتصل بيننا وبين ما ننشد من غايات وآمال ، وقد ورثناها عن القدماء فيما ورثناه ، وعكفنا عليها ، فلم نحاول لها تغييراً ولا اصلاحا ؛ وكان لآبائنا الأقدمين العذر فى اصطناع هذه الأساليب ، لأن ذلك كان مبلغ علمهم ، ومنتهى جهدهم ؛ أما نحن فلا عذر لنا ، لأننا نعيش فى عصر أخص خصائصه وأوضح سماته ، نضج العقل البشرى ، وبلوغ المعرفة الإنسانية غاية كبيرة في شتى ألوان المعرفة والثقافات ، وطموحُ عقل الإنسان الى السير الى أبعد الغايات فى هذا السبيل . وقد حفز تقدم العلوم الناس الى استغلالها فى اصلاح أساليب حياتهم ، والى الإفادة منها فى خطواتهم الى الإصلاح ؛ ولكننا لا نستضىء فى مشكلاتنا العقلية والعلمية ولا فيما سواهما بضوء العلم الصحيح ؛ وكأننا نعيش فى العصور الخاليات .

نكرر ما قال القدامى ولا نزيد فيه ، ونأخذه جملة يختلط فيها المنتج بالعقيم ، والشوك بالثمر ؛ وألفنا ذلك ، حتى ساغ فى عقولنا وأذواقنا ما لا يستساغ ، ولم نفكر فى شىء منه ، ولم نسعَ الى اصلاح ما لا بد لليقظِ الطموح من اصلاحه ، كأنما نعتقد أنه نظام من أنظمة الكون ، وسنة من سنن الوجود ، لا يقبل تغييراً ولا تبديلاً .

أقلّ تفكير فيه ينبئنا بعيوبه ، وأقلُّ تفكير فى هذه العيوب ينبئنا بوجوه اصلاحها ، ولكننا لم نفكر فيه ، ولم ندر ما عيبه ، ولم نهتد الى وجوه الإصلاح فيه ، كأنما كتب علينا أن نسير فى الحياة مغمضى العيون ، أو أن نبصر بعيون من تقدمونا ، ونسمع بآذانهم ، فلا نرى

الا ما رأوا ، ولا نسمع الا ما سمعوا ؛ ولو فكرنا بعقولنا ، ونظرنا بعيوننا ، وسمعنا بآذاننا ، كما فعل من تقدمونا ، لأصلحنا تراثنا ، ونمّينا علومنا ، ولانتفعنا بهذه التركة التى خلفها لنا الآباء ، ولورّثناها أبناءنا وأحفادنا وهى أنمى مما ورثناها الآباء والأجداد .

هذا تقليدنا الموروث ؛ وليس طريقنا المستحدث بأحسن حالاً ، ولا بأقوم طريقة ، فلقد اقتبسنا بعض الأساليب فيما اقتبسنا من الأجانب المخالطين لنا ، ومن الأمم التى ننظر إليها بعين الإكبار والأعظام ، اقتبسناه وقلدنا فيه الأمم الأخرى ، دون تبصر أو اختبار ، ودون أن ننظر فيه لنرى أصالح أم فاسد ، أموافق لمزاجنا النفسى أم غير موافق ، حتى ننتفع به ولا ينالنا من ورائه ضرر ، فكان تقليداً فى النافع والضار ، والموافق لروحنا والمخالف ، آمنّا به ، واستسغناه ، وألفناه ، وأنزلناه من نفوسنا منزلة جل بها عن النقد والتمحيص ، وعن الشك والتغيير . وهذا أيضاً لو استشير فيه العلم لميّز الذهب الخالص من البهرج الزائف ، ولبصّرنا ما نأخذ منه وما ندع ، وما يوافق طباعنا ومزاجنا النفسى وما يخالف ، وما ينفعنا وما لا ينفعنا ، وما هو عند أهله مرض يودون التخلص منه ، وما هو صحة يودّون الابقاء عليه ؛ ولبصرنا أنه لا يصح التقليد فيما هو مرض باعتراف أهله ، وأخذ الصالح والطالح جميعاً .

هذا هو شأننا فيما ورثناه وما اقتبسناه .

ولقد كان ذلك كله باعثاً لى على أن أفكر فى الأمر ، وحافزاً لى على أن أبذل كل ما أستطيع من جهود متواضعة فى سبيل خير الأمة والنشء

والثقافة ، فعزمت على أن أقصد إلى أسلوب ، أسلوب ، من أساليبنا في الحياة ، وإلى بعض علومنا ، فأبحثه تحت ضوء العلم لنتبين عيوبه ، وأوضح رأى العلم فيه وفيما يشير به من إصلاح أو تبديل ، ثم أعرض نتائج البحث على أولى الأمر وقادة الفكر فى مصر ، مؤملاً أن يشاطروني الشعور بضرورة الإصلاح ، وأن يقوم كل غيور على مجد الوطن وحريص على مستقبل الشباب والثقافة فى مصر بما يستطيع القيام به فى سبيل تحقيق آمال الأمة فى الإصلاح .

ولعلى بهذه الدعوة أستطيع أن أفيد أمتى كما أفدت منها ، وأن أجزيها خيراً بخير ، وإحساناً بإحسان .

وأول ما أبدأ به أسلوب تعليم اللغة العربية ، فسأحاول أن أبحثه ، وأبين عيوبه ، وأذكر ما يشير به العلم من أسلوب ، ولعلّ هذه الدعوة تلقى ما أريده من توفيق يشجعنى على المضى فى السبيل الذى اعتزمته ، والمنهج الذى أردته ، « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله » .

عرض الآراء المعاصرة

في تيسير اللغة العربية ونقدها

رأى من يقول بوجوب التوفيق بين العامية والعربية ، بيان أن ذلك يؤدى إلى إحداث لغة جديدة ، لا هى بالعامية ولا هي بالعربية العربية لغة القرآن فيجب الاحتفاظ بها ، العربية أداة التفاهم بين ثمانين مليوناً ، العربية لغة تراثنا العقلى ، رأى من يشير باصطناع العامية ، العامية تسجننا فى سجن لا نتفاهم فيه مع جيراننا ولا نتفاهم فيه مع أجدادنا رأى من رأى إيثار اللهجات العربية التى توافق العامية ، بيان أن ذلك لا يحل المشكلة .

شعر رجال التربية والتعليم فى مصر منذ زمن طويل باخفاق المعاهد المصرية المختلفة فى تعليم اللغة العربية ، فهبوا يتعرفون أسباب هذا الإخفاق ، ويعالجونه بالوسائل التى يرونها . ألفوا اللجان ، وعقدوا المؤتمرات ، وبحثوا البحوث المختلفة ؛ فمرة يرون الإخفاق من صعوبة النحو فينصرفون إلى تسهيله ، ومرة يرونه من كثرته فينصرفون إلى تقليله ؛ ومرة يرونه من قلته فينصرفون إلى تكثيره ، ومرة يرونه من مدرس اللغة العربية فيعمدون إلى إصلاحه وحسن اختياره والعمل على توسيع ثقافته ، ومرة يرى بعض الباحثين أن هذا الإخفاق إنما هو من آثار البعد ما بين

العامية والعربية فيشير بالتقريب بينهما بأن تنزل كلتاهما عن بعض خصائصها لتقرب من الأخرى . وهـذا معناه إعدام اللغتين واصطناع لغة لا هى بالعربية ، ولا هي بالعامية ، وليس هذا إصلاحاً ، وإنما هو خضوع للحالة الراهنة ، وإقرار الخطأ ، والعجز أمام اللحن والتحريف .

والاعتبارات الدينية والاجتماعية والتاريخية تقضى علينا بالاحتفاظ باللغة العربية كما هى تدب فى عروقها دماء القوة والحياة .

أما الاعتبارات الدينية فانها لغة القرآن والسنة ، ومنها يأخذ المسلمون دينهم وعقائدهم وأخلاقهم وعباداتهم وأحكام معاملاتهم ، وهم يحرصون على اللغة العربية أشد الحرص ، ليفهموا بها كتاب الله وحديث رسوله ، فيبقى ذلك الينبوع الذى يستقون منه متدفقاً ثراراً ، ويخشون أعظم الخشية أن يصبح غوراً فيفقدوه وهم فى مسيس الحاجة اليه .

وهم لا يرضون أن تبيد اللغة العربية كما بادت أخواتها من اللغات السامية كالعبرانية أو السريانية ، فيصبح القرآن لا يتلى ولا يفهم الا فى المساجد وعند أداء الشعائر ، كما صارت العبرانية والسريانية لا يتليان إلا فى الصوامع والبيع .

وأما الاعتبارات الاجتماعية فان اللغة العربية الآن لغة عامة ، فهى لغة شمال افريقية والجزء الغربى من آسيا ، وسكانها يبلغون أكثر من ثمانين مليوناً من الأنفس ، إذ أن اللغة العربية لغة الكتابة في هذه الأقطار جميعها ، ومنها تفرعت لهجاتهم ، ولحرصهم على اللغة العربية دائماً لا تبعد اللهجات عنهـا ، وكذلك لا تبعد لهجات الأقطار بعضها عن بعض بعداً يجعل التفاهم بين أهلها متعذراً .

وقد ربطت هذه اللغة بينهم برباط اجتماعى وثيق ، وسهلت سبيل التعارف والتآلف ، فأصبح المصرى مثلاً يسافر شرقاً إلى الشام أو الحجاز أو العراق ، ويسافر غرباً إلى لوبيا وطرابلس وتونس والجزائر ، ويسافر جنوباً إلى بلاد السودان وما وراءها فيرى أهلاً بأهـل وجيراناً بجيران ، يحل بين قوم يفهم عنهم ويفهمون عنه ، ويألفهم ويألفونه ، وكأنه لم يبرح بلده ، ولم يفارق موطنه ، ذلك بفضل اللغة العربية وما يسرت من تفاهم ، وكذلك شأن السورى والعراقى والحجازى إذا حل بهـذه الأقطار ، وقد كان ذلك سبباً فى زيادة التعاون وإحكام روابط الأخوة والحب بين شعوب الشرق العربى ، وفتح طريقاً إلى الوحدة العربية التى ينشدها كل محب للشرق وللعرب ، وستحقق إن شاء الله بفضل هذه اللغة .

وقد أدى ذلك إلى سهولة التجارة وتبادلها بين هذه الأقطار ، كما أدى الى تبادل الثقافة وسائر ألوان الإنتاج فى العلم والمعرفة والتفكير ، وصار المؤلف فى مصر لا يؤلف لوطنه وحده ، وانما يؤلف لجميع هذه الأقطار ، كما صار طابع الكتب وناشرها لا يطبع أو ينشر لمصر فحسب ، وانما يطبع لهذه الأقطار ولبلاد الهند والملايو وجاوه وسومطره وبلاد الصين ، كذلك شأن المؤلفين والناشرين فى هذه الأقطار ، وذلك كله بفضل اللغة العربية .

وأما الاعتبارات التاريخية فان علوم آبائنا وأجدادنا وثقافتهم وتراثهم العقلى قد وضعت باللغة العربية ، فنحن نحافظ عليها ما حافظنا على هذا التراث . وهذا هو أيضاً ردنا على النفر القليل الذين دعوا الى العامية واحلالها محل اللغة العربية .

أتدرون ما ذا نكون إذا نحن اتبعنا مشورة أولئك وهؤلاء من يشيرون علينا بأن تتنازل العربية عن بعض خصائصها لتقرب من العامية ، أو بأن نصطنع العامية بدل العربية ؟ إننا بذلك نعمد إلى تلك الصلات التى بيننا وبين جيراننا الشرقيين فنقطعها فنصبح نتكلم بلغة لا يفهمونها ويتكلمون بلغة لا نفهمها .

ونعمد إلى تلك الصلات التى بيننا وبين أسلافنا الماضين فنقطعها أيضاً ونصبح لا نتصل بعلومهم ولا ثقافتهم ، لأنها باللغة العربية ونحن نصطنع العامية ؛ ونكون قد سجنا أنفسنا فى سجن العامية المظلم لا يفهمنا أحد ولا نفهم أحداً بعد أن كنا فى ميادين العربية الفسيحة التى تمتد شرقاً وتضرب فى بلاد الهند والصين ، وتمتد غرباً وتضرب فى سواحل المحيط الأطلسى ، وتمتد جنوباً وتضرب فى المحيط الهندى ، وتمتد شمالاً وتضرب فى آسيا الصغرى وبلاد الأناضول ، وتمتد فى الماضى وتضرب فى عهود العباسيين والأمويين والخلفاء الراشدين وعصر البعثة المحمدية وما قبل البعثة من عصور العرب الأولين .

ومرة يرى بعض الباحثين أن يقرب بين العربية والعامية بأن يؤثر كل لهجة عربية توافق العامية ، فيؤثر اللغة التى تلزم الأسماء الخمسة الألف ، لأن العامية تنهج فى أسلوبها هذا المنهج ، ويؤثر اللغة التى تعرب جمع المذكر السالم إعراب حين ، لأن العامية تفعل ذلك .

وهذا لا يحل المشكلة ، لأن العامية لا تلتزم نهجاً واحداً خاصاً فى أسلوبها ولا تلتزم لغة من هذه اللغات . وأيضاً فكثير من العامية ليس

له نظير فى لهجة من اللهجات العربية .

ثم ماذا يفعلون ؟ أيوجبون هـذه اللغة ويخطئون ما عداها ، أم يجوزونها ويخيرون بينها وبين اللغات الأخرى ؟ فإن كان الأول أدى ذلك إلى أن المتعلم على هذه الطريقة يخطىء القرآن وكلام رسول الله وكلام العرب إذا جاءت على غير هذه اللغة . وإن كان الثانى لم يعد ذلك تسهيلاً لأنه لم يفعل شـيئاً سوى أن زاد فى الطنبور نغمة ، فبعد أن كان يعلم لغة واحدة فى جمع المذكر السالم هى اللغة العامة القياسية أصبح يعلم اللغة العامة واللغات الأخرى القليلة .

ثم هذا يضيع على المسلمين الغرض الذى يرمون إليه ، ويحرصون عليه أشد الحرص ، وهو الاحتفاظ بلغة القرآن ولهجته وطريق أدائه .

والذين يدعون إلى تيسير قواعد النحو والصرف والبلاغة أقرب إلى الصواب ؛ ونحن نؤمن كما يؤمنون بضرورة هذه الخطوة ، وإن كنا نخالفهم فيما ذهبوا إليه من قواعد ، كما بينا ذلك فى حينه ، ونرى أن التسهيل جزء من كل من الإصلاح المنشود .

فأنت ترى من هذا كله أن المشكلة على ما هي عليه لم تحل ولم توشك أن تحل . وسنحاول إن شاء الله فى الفصول الآتية أن نحل هـذه المشكلة التى استعصى على الزمن حلها .

اخفاقنا فى تعليم اللغة العربية

ونتائجه الخطيرة

شكر جميع الذين ساهموا فى بحث مشكلة اللغة العربية سواء أوفقوا أم لم يوفقوا ، نبل أغراضهم

بيان اننا أخفقنا حقا فى تعليم اللغة ، كراهية الشباب لعلوم اللغة ، اضرار اصطناع لغة للخطاب وأخرى للكتاب ، منها كتابة العلوم والآداب بلغة لا يفهمها الشعب فتبقى الأمة جاهلة . العمل على تيسير اللغة العربية عمل على ترقية المتكلمين بها

بينا فى مقالنا السابق جهود رجال العلم والتربية فى سبيل إصلاح تعليم اللغة العربية ، تلك الجهود التى إن أخطأها التوفيق فلن يخطئها أن تكون حقيقة بالشكر وعرفان الجميل

إن هذه الجهود المختلفة دليل على عنايتهم باللغة العربية ، وحرصهم عليها ، ومعرفتهم بقدرها ، ودليل على أنهم يحبون شباب هذه الأمة ، ويودون أن يسهلوا عليهم ما صعب ، ويقربوا إليهم ما بعد ، وأن يسهروا ليناموا ، وأن ينصبوا لهم ليجدوا السعادة والراحة

وهذا وحده جهد مشكور ، وصنيع غير مكفور ، جدير بالإجلال

والتعظيم ، سواء أوفقوا فيما حاولوا أم لم يوفقوا .

ورب قائل يقول : لقد وضعت أن المعاهد فى مصر أخفقت فى تعليم اللغة العربية ، وأخذتها مقدمة مسلمة ، وكنت بحاجة إلى أن تقيم عليها الدليل ، فلعلها لم تخفق فى تعليم اللغة ، ولعلها نجحت أعظم النجاح ، ولعل ما هو مشهور بين رجال التعليم من أنها أخفقت فى هذه المهمة — من القضايا التى اشتهرت لغرض من الأغراض ، فاذا نقدت تبين خطؤها . فلسنا نسايرك حتى تقيم الدليل على هذا الإخفاق

وأقول إنى أوافق هذا القائل على أنه لا بد من أن يقام الدليل على هذه المقدمة ، ولا يصح أن تترك دون بيان

إن المرء يكون قد أتقن لغة ما إذا كان يتكلم ويقرأ ويكتب بهذه اللغة ، جارياً على قواعدها ، مراعياً قوانينها ، لا يلحن فيها ولا يخطىء ، وأن المدرسة تكون قد نجحت فى تعليم اللغة إذا كان الذين تخرجوا فيها جميعهم أو أكثرهم على هذه الصفة ؛ فهل من تخرجوا فى مدارسنا كذلك !

أما الكلام باللغة العربية فلا تكاد تجد أحداً يتكلم بها ، فالشعب كله يصطنع فى التفاهم والتخاطب اللغة العامية ، وليس من الناس من يصطنع اللغة العربية إلا فى الندرة وعلى سبيل الشذوذ ، حتى أن دروس اللغة العربية تلقى بالعامية ، فقد دخلت العامية على العربية حجرات دروسها ، وغزتها فى معاقلها ، وأخص الأماكن بها

ومن المضحك حقاً أن تجد مدرس النحو أو الصرف أو البلاغة أو مفسر النصوص العربية من شعر ونثر يلقى دروسه وقواعده بلغة عامية ،

لا يراعى ما يقول من قوانين ، ولا يقوم لسانه بما يسرد من قواعد

فأما الكتابة والقراءة بهـا ، فلا يقرأ باللغة الفصحى ولا يكتب إلا فئة قليلة ، تمكنت من حفظ لسانها من الخطأ عند القراءة والكتابة ، وجمهرة المتعلمين لم يصلوا إلى هذه المنزلة ، فالشاب يتخرج فى المدرسة ، أو فى المعهد ، ولسانه لا يكاد يقيم جملة ، أو يعرب كلاما ، ولا يستطيع أن يعبر عن خلجات نفسه بأسلوب صحيح مستقيم

واذا لم يكن هذا اخفاقا ، فماذا يكون الإخفاق ؟

وكما لم توفق مدارسنا فى الغاية لم توفق فى الوسيلة ، أو قل أنها لم توفق فى الغاية لأنها لم توفق فى الوسيلة ؛ فالوسيلة الى تعلم اللغة هى دروسها ، ولما تستطع مدارسنا أن تحببها الى التلاميذ ، فهم يأتون اليها متثاقلين ، ويستمعون اليها كارهين ، وهم يبغضونها بغضاً يملأ ما بين جوانحهم . فالنحو عندهم ثقيل بغيض ، وكذلك الصرف ؛ وعلم البيان — الذى قال فيه بعض العلماء : أنه لا ثواب فى تعلمه ، يشير الى أنه لامشقة فيه على المتعلم ، وهو يطلب لما فيه من لذة ، فجزاؤه فيه — قد بغضته اليهم هذه المدارس أيضاً ؛ وليس العيب فى ذلك على الشباب ، لأنهم يدرسون الهندسة والحساب والطبيعة فى غير ضيق ولا حرج ، بل يدرسونها فى شغف ومحبة ، انما العيب على دروس اللغة العربية وحدها .

فلا عجب بعد ذلك ان لم ينتفعوا بهذه الدروس ، لأن الانتفاع بالشىء على قدر المحبة له ، والرغبة فيه

هذا شىء مخيف حقاً ، له نتائجه الخطيرة ، فاما أن نعمل على تسهيل

الانتفاع باللغة العربية وتيسيرها على الدراسين والمتعلمين وتزيين علومها فى قلوبهم ، واما أن نتحمل أمام التاريخ والأجيال عواقب هذا التفريط والإهمال ، لأن الشيء البغيض المملول لا يعمر طويلا ، ولا يمكن أن يكره الناس عليه دائما

وهناك أمر آخر ينتج من الخيبة فى تعليم اللغة العربية ، يخشاه رجال الاجتماع أعظم الخشية ، ويشفقون منه أشد الإشفاق ، وهى بقاء الحال على ما هى عليه فى مصر ، من اصطناع لغة للخطاب ، وأخرى للكتاب ، بينها وبين جمهور الشعب بون شاسع ، وعقاب صعاب

وانما كانوا يخشونه ، ويشفقون منه ، لأن ذلك يؤدى الى اطالة أمد جهل الأمة وتأخرها ، لأن العلم والأدب قد كتبا بلغة لا يفهمها جمهور الشعب ، وهى العربية ، فلا سبيل الى وصوله اليها

أما اذا نجحت المدرسة فى تعليم العربية ، وتكلم بها المتعلمون وهم مخالطون للشعب ، فعلى مرور الزمن يسهل عليه فهم اللغة العربية ويتسرب إليه كثير من مفرداتها وتراكيبها ، وربما علمها فصارت لغة الخطاب ، ولغة الكتاب ، وهذا كسب ليس بالقليل ، فكل ما كتب من علوم وأخلاق وآداب يكون حينئذ فى متناول جمهور الشعب ، فيرقى الى الذروة التى ينشدها له المصلحون

وهناك طائفة من رجال الاجتماع ترى أنه اذا خابت المدرسة فى تعليم العربية ، وخابت الأمة فى اصطناعها وفى رفع لغة الحديث الى اللغة التى تكتب بها العلوم والآداب ، فلا مناص من كتابة العلوم والآداب باللغة التي

تفهمها الأمة ، لتنتفع بها ، ولتبلغ الأمل المنشود ، لأنه خير للأمة أن تخسر اللغة العربية وتكسب العلم الذى به نماء عقولها ، والآداب التى بها تقويم أخلاقها ، من أن تربح العربية وتخسر العلم والأدب

فأنتم ترون أن الأمر جد خطير ، وأنه يعنى حياة اللغة العربية أو موتها ، ونجاح المتعلمين فى تعلمهم أو أخفاقهم ، ورقى الأمة أو انحطاطها

لذلك يجب أن نعمل جاهدين ، وأن نجهد مخلصين ، حتى نعرف الأسباب فى هذا الإخفاق ، وأن نفعل الممكن وغير الممكن لنجعل تعليمها ناجحاً ، ولنحبب درسها الى التلاميذ ، وبذلك نتقى هذه النتائج السيئة ، ونوفر على الشباب وقته وجهوده ونحمى اللغة العربية من الضياع والموت

هذا مادعا رجال العلم الى معالجة هذه المشكلة

وهذا ما دعانى أيضاً الى أن ألقى بدلوى فى الدلاء ، وسأعرض بحثى على القارئين ، وأولى الأمر فى مصر ، وفى غير مصر ، ولعل هذه الدعوة تلقى ما أقدره لها من توفيق

درس أسلوب تعليم اللغة العربية

وبيان عيوبه

ليس فيما جئت به من أسلوب تعليم اللغة جديد ، اقتباسه من العامة ومعلمى الصنعات ، الجدة فى نقد القواعد ، عناية الأمة الاسلامية باللغة العربية ، استنباطها علومها المختلفة ، اصطناع القواعد فى تعليم اللغة ، درس أساليب الصناع فى تعليم تلاميذهم ، اعتمادهم على المران والتكرار ، سر الأخفاق فى تعليم العربية الاعتماد على القواعد ، سر النجاح فى تعليم الصنعة الاعتماد على المران والتكرار ، إصلاح أسلوب تعليم اللغة أن نأخذ بأسلوب تعليم الصناع من المران والتكرار ، التشكيك فى ذلك ، الوعد باقامة البرهان عليه

يتوقع القراء أننى سآتيهم فى مشكلة اللغة العربية بحلول مطولة وآراء معقدة ، تثقل على العامة ولا يسيغها الا الخاصة

وانني سآتيهم بالجديد الذى لم يقرع أسماعهم ، ولم يخطر لهم ببال

وأني أقول للقراء أن ما سأعرضه عليهم قسمان : الأول نقد الطريقة التى تسلكها المدارس فى تعليم اللغة ، والثانى نقد علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة ، وابطال الباطل من قواعدها ، واحلال الحق محله

فأما نقد أسلوب تعليم اللغة فإنى أحب أن أطمئن القراء من جهته ،

فان الحلول التى جئت بها سهلة لا غموض فيها بسيطة . لا تركيب فيها ؛ وهكذا شأن الحقيقة تمتاز بالسهولة والبساطة ، وقد أخذتها من العامة وأشباه العامة ، أخذتها من الحائك اذ يعلم الحياكة ، والحداد اذ يعلم الحدادة ، والنجار اذ يعلم النجارة

وليس فيما جئت به فى هذا الموضوع جدة ، وانما هو قول معاد مكرور ، قاله علماء الشرق قديماً وعلماء الغرب حديثاً ، حتى أننى ترددت فى عرضه على الناس ، ولكن يشفع لى فى عرضه أن قوى لم يعملوا به كأنهم لا يعرفونه ، فقلت لعلهم يحتاجون الى الإقناع به ، واقامة الدليل عليه ، وإرادة الكلام على البرهان والإقناع ، ليوافق طبقات الناس ، وكذلك فعلت

وأما نقد القواعد وبيان الباطل منها ، واحلال خير منها محلها . فهى مسائل فنية يصعب فهمها الا على الدراسين ، وهى جديدة قد نشأت من الدرس الطويل ، والتأمل والتنقيب فى هذه العلوم ، وفيها لذة ومتعة ، فسيرى فيها القراء مصاولة العقول ومقارعة الآراء ، وسيرون علوما كانت تحاط بهالة من التقديس تنهار وتتهدم ، وعلوما أخرى حلت محلها وأخذت مكانها ، فبدت أعلى منها وأسمق ، وما نهدم ما نهدم الا عن بينة وحجة . فما عدله الدليل فهو المجرح المدخول

فان كان ما جئت به حقاً فللقراء خيره وبركته ، ولى ما كابدته من النصب والهم ، وإن كان باطلا فعلى تبعته وعاره ، وخلاهم ذم

ربما لم تعن أمة فى العالم بلغة ما كما عنيت الأمم الإسلامية باللغة

School of Oriental Studies
of
The American University at Cairo

العربية ، وقد عظمت هذه العناية واتصلت وتلاحقت مدة ثلاثة عشر قرنا ، فتوافر العلماء عليها فى القديم يدرسونها من نواحيها المختلفة ، درسوا مفرداتها وعرفوا التغييرات التى تلحق المفرد ، والأوزان التى يكون عليها ، وكيف تتصرف الكلمة في الماضى والمضارع والأمر واسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة الخ . وعرفوا قواعد ذلك وسموه علم الصرف ، وعرفوا ما تدل عليه كل كلمة من معان ، والشواهد التى يستشهد بها على هذه المعانى ، ودونوا ذلك وسموه علم متن اللغة ، ودرسوا نظمها وتراكيبها المختلفة ، وما يفيده كل نظم وتركيب ، ووضعوا قوانينه وسموه علم النحو . ودرسوا فضيلة الكلام ، ووضعوا القواعد التى يحسن بها الكلام وسموها علم البلاغة . ودرسوا ما فى لغة العرب من شعر ونثر وبينوا معانيه . ودرسوا أوزان الشعر وأعاريضه وقوافيه . وهلم جرا

وضعوا كل ذلك فى قوانين ، ووضعوا هذه القوانين فى كتب قد سطرت ، وصحف قد نشرت ، وكان كل جيل من الأجيال يزيد وينقص ، ويغير ويبدل على حسب ما يتراءى له ، ويضع الكتب الجمة والأسفار المختلفة ، وكانوا يعكفون عليها يتدارسونها يعلمها كبيرهم صغيرهم ، وعالمهم جاهلهم ، وقد ورثنا نحن هذه العناية فدرسناها فى جميع معاهد التعليم ، فهى تدرس فى وزارة المعارف ، فى الأقسام الابتدائية والثانوية وفى التعليم الأولى ، وهى تدرس فى المعاهد الدينية والأزهر فى الأقسام الابتدائية والثانوية ، وهى تدرس فى كلية اللغة العربية من كليات الأزهر ، وفى

كايتى الآداب من جامعتى فؤاد وفاروق ، وهى تدرس فى دار العلوم ومدارس المعلمين والمعلمات ، ونصيبها من الحصص فى هذه المعاهد نصيب الأسد

عكفت مدارسنا على هذه القواعد التى استنبطها العلماء المتقدمون فى النحو والصرف والبلاغة والعروض والقافية تدرسها وتضبط شوارد العربية على المتعلمين

وكانت تقسم القواعد على سنى الدراسة قسمة تراعى فيها الحكمة ، فهى قليلة موجزة فى الأقسام الابتدائية ، وكثيرة مطولة بعض الشىء فى الأقسام الثانوية ، وهى مطولة كل التطويل ومستوعبة كل الاستيعاب فى المدارس العالية

إنى لأعجب كيف تخفق مدارسنا وتخفق الأجيال قبلنا فى تعليم هذه اللغة مع هذه العناية وهذا الجهد

أينجح الحائك فى تعليم الحياكة ، والبناء فى تعليم البناء ، والنجار فى تعليم النجارة ، وكل ذى صنعة فى الدنيا فى تعليم صنعته ، ويخيب رجل العلم والتربية فى تعليم اللغة العربية ؟

أينجح تلاميذ الصناع جميعاً إلا قليلا ، ويخيب تلاميذ رجال العلم إلا قليلا مع أن الأولين يبذلون أقل جهد ومشقة فى تعليم الصناع ولا يعللون المسائل ولا يفلسفونها ، ولا يعملون شيئاً إلا أن يأخذوا المتعلمين بأعمال كثيرة من صنعتهم ويمرنوهم ويكرروا ذلك ، فإذا هم قد حذقوا الصنعة وأجادوها ، ومع أن الآخرين يبذلون كل جهد ومشقة ، ويذكرون علل العربية ويفلسفونها ، ويطلعون تلاميذهم على دقائقها وخفاياها

لعل مازحاً يمزح ويقول : أن سر هذا الإخفاق فى هذه العناية ، وسر هذا النجاح فى هذا الإهمال

وسنأخذ هذا المزاح جداً ، ونرى أنه يشير إلى الطريق ونضع أن سر نجاح أولئك فى طريقتهم وسر خيبة هؤلاء فى طريقتهم

سر نجاح أولئك فى المرانة والتكرار حتى يكسبوا الصنعة ، وسر خيبة هؤلاء فى الاعتماد على القواعد وترك الحفظ والمرانة والتكرار ولو أخذ كل بطريقة الآخر لخاب الناجح ، ونجح الخائب

لو علم الحائك تلميذه بطريق القواعد فحسب ، وظل طول عمره يقول له شد الخيط طولا واسلك فيها الخيوط عرضاً ليتكون منها سدى ولحمة ، ولم يأخذه بأعمال الحياكة الكثيرة وتكرارها والمرانة عليها ، لخاب فى التعليم ولم يكسبه الحياكة ، ولو أخذ عالم العربية بطريق المرانة والتكرار والحفظ ، فحفظ تلاميذه أساليب العربية البليغة ، ومثلها الرائعة مما يعتاد فى الخطاب ، وأخذهم بالنسج على منوالها فى الحديث والكتابة والخطابة لنجح فى تعليمه

ولا عجب أن يكون هذا الصانع العامى أقرب إلى الحقيقة من هذا العالم المربى ، لأن هذا العامى يرجع إلى الواقع ويستملى منه وهذا العالم قد أغفل الواقع وقلد ما كان عليه الآباء والأجداد

هذا العامى يعلم أن قواعد الصنعة لا تعطى الصنعة ، ولا يعطيها إلا تمرين المتعلم ، وأخذه بنماذج كثيرة ، وتكرير ذلك حتى يتقنها

وهذا العالم أغفل هذه الحقيقة وظن أن قواعد اللغة تكسب اللغة

وأن قواعد البلاغة تكسب البلاغة فأخذ يبدأ فيها ويعيد ، ويكرر ويكثر من التكرار، فأكسبهم ملكة فى قواعد اللغة ، ولم يكسبهم ملكة اللغة

سيهول هذا أقواماً ويرونه سخفاً من القول ، وقياساً مع الفارق ، ويقولون : إنك لم تعمل شيئاً سوى أن قست قياساً فقلت تعليم وتعليم ولغة وصنعة ، وكما أن الصنعة لا تكسب بالقواعد إنما تكسب بالعمل والتكرار كذلك لا تكسب اللغة العربية بالقواعد فحسب إنما تكسب بالعمل والتكرار والحفظ ، والقياس لا يفيد اليقين ، فطرق العلم مختلفة ، فهذا يعلم من طريق ، وذاك يعلم من طريق آخر ، فالروائح تعلم بالشم ، والطعوم تدرك بالذوق ، والألوان تدرك بالبصر ، فكما لا يصح أن يقال : إن الأحمر قد كان طريق العلم به البصر فيجب أن يكون الحامض طريق العلم به البصر كذلك لا يصح القياس الذى ذكرته ، فلعل هناك فارقاً بين الصنعة واللغة يجعل أحكامهما مختلفة ، فتكون الصنعة تكسب بالتكرار ، وتكون اللغة تكسب بالقواعد ، فالقياس لا يجدينا ولا ينفعنا ، فلا بد أن تأتى بالبرهان لنصدق به ، ولا نجد عنه معدى

وإنى أعد القراء أن أجىء بالبرهان على أن اللغة كسائر الصنعات لا تكتسب بالقواعد ، إنما تكسب بالحفظ والتكرار ، وأن أدير الحديث على طرق إقناعية شتى حتى أفوز بإقناع أولى الأمر فنحل مشكلة من مشكلاتنا العديدة ، لنفرغ لمشكلات أخرى .

اللغـــة ملـــكة

والملكة لا تكتسب بالقواعد بل بالتكرار

قوة العلم ويمنه ، ضعف الجهل وشؤمه ، استعانة الأمم الراقية بالعلم على حل مشاكلها ، عدم استعانة الأقوام الهمج به ، وجوب الاستعانة به فى حل مشكلة اللغة ، ماهية اللغة مايقتضيه التكلم بها من السرعة والأجادة ، خواص الملكات السرعة والأجادة ، أسرار الملكات فى السرعة والأجادة ، حكمة الله فى خلق الملكات فى عباده ، الملكات لاتكتسب بالقواعد بل بالتكرار ، اللغة لاتكتسب إلا بالتكرار

فى الأمثال العربية : قتلت أرض جاهلها ، وقتل أرضا عالمها ؛ ومعنى ذلك أن من سلك أرضا وكان جاهلا بطرقها ضل وهلك ، ومن سلك أرضاً وكان عالماً بمسالكها قطعها ونجا منها . وهذا لايختص بالأرض والمسافر ، بل يعم كل من يزاول أمراً من الأمور ، فإن زاوله عالماً به تغلب عليه ، وإن زاوله عن جهل خاب فيه

للعلم سلطانه القاهر ، والمتسلح به متسلح بسلاح الظفر ، وللجهل عثراته الموبقة والمتسلح به متسلح بسلاح مفلول ، إن الأمم التى تحل مشكلاتها مستضيئة بنور العلم تنجح فيما تحاول ، وتتغلب على الصعاب التى تعترضها ، والأمم التى لاتستهدى العلم ولا تستشيره فى مشكلاتها ، لاتكاد تحل لها مشكلة

وما الفرق بين الأمم المتحضرة والأقوام الهمج ، إلا أن الأولى آمنت بالعلم وبسيطرته على الوجود ، فسعت للكشف والمعرفة ، وكلما علمت شيئاً استفادت منه فى حياتها ، وأن الثانية لاتؤمن هذا الإيمان بالعلم . ولا تعترف له بهذه القدرة ، فهى تحل مشاكلها بما يأتيها به عفو الخاطر ، فتعثر دائما ويلج بها العثار

وخير علاج ما يكون مبنياً على طبائع الأشياء فأول مايبدأ به معرفة طبيعة الشىء . ثم يعالج على حسب هذه الطبيعة وبنور هذه المعرفة

وعلى هذا فخير مايعمل لحل مشكلة اللغة العربية أن تعرف طبيعتها ومن أى جنس هى ! وماخصائص هذا الجنس ! وقد أدركت ذلك واقتنعت به ، وأريد أن نقنع به القراء

قضيتان إن آمنتم بهما سلمتم معنا بما نريد : إحداهما أن اللغة فى المتكلمين بها ملكة . ثانيتهما أن الملكة لاتكتسب إلا بالتكرار لا بالقواعد فحسب

إذا استطعت أن أقيم الدليل على هاتين القضيتين ، وصدقتم بهما ، وجب أن تصدقو أن اللغة لاتكتسب بالقواعد فحسب ، بل بالتكرار والحفظ والمحادثة ، وسأحاول ذلك فيما يأتى :

اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . والتعبير باللغة والفهم عنها يقتضى أمرين :

١ — السرعة ؛ فكلما خطر ببال المتكلم معنى خطر اللفظ الدال أعلى مفرداته

وخطر التركيب الدال عليه فى وحاء ، وكلما سمع جملة فهم معانى ألفاظها وما يدل عليه التركيب

٢ — الإجادة ؛ وذلك بأن يكون جارياً على قوانين هذه اللغة لايخطىء فيها ، وذلك لا يكفى فيه أن تكون اللغة معلومة فحسب ، بل لابد أن تكون ملكة ، أى حالة راسخة فى النفس ، لأنها إذا كانت معلومة علماً ساذجا ولم تصر ملكة ، وأراد المتكلم التعبير عن معنى ، فكر وروى فى اللفظ الذى يدل على ذلك المعنى ، واستعرض الألفاظ المخزونة فى حافظته حتى يعثر به ، ثم فكر فيما يعلمه من تراكيب هذه اللغة ليختار التركيب الذى يفيد ذلك المعنى ، ووضع اللفظ فى هذا التركيب . وأعطاه الأحوال المناسبة ، وذلك يقتضى جهداً وزمناً ، وربما ينقضى بياض النهار وسواد الليل فى تعبيرين أو ثلاثة ، مادامت اللغة علماً ساذجا . أما إذا عمقت إلى أن صارت ملكة ، فانه إذا أراد التعبير عن معنى انثالت عليه الألفاظ ، وانثالت عليه التراكيب دون جهد ومشقة ، سريعاً لايبطىء ، مصيباً لايخطىء

وقياس ذلك قياس العامل الذى يصف الحروف للطبع ، فانه إذا كان مبتدئا واقتصر على العلم بأمكنة الحروف ، وأراد بعد هذا العلم الساذج أن يصف حروف كلمة اقتضاء ذلك من التفكير والجهد .والزمن ماليس بالقليل وربما انقضى اليوم ولم يصف إلا بضع كلمات

أما إذا تجاوز ذلك إلى أن صار ملكة ، فانك ترى يده تلقط الحروف

من هنا ومن هنا ، وفكره يسبق يده ، ويده تسبق فكره حتى يصف فى الدقيقة عدة كلمات

وهذا شأن الملكات كلها تأتى بالشىء فى عجلة وإتقان ، وتريك العجب العجاب ، ترى الأمر الذى له أجزاء كثيرة ويحتاج إلى فكر فى هذه الأجزاء يأتى به صاحب الملكة دون فكر كأنما هو ساحر يأتى بالخوارق

رآنى صديق أمى ، كان قد بدأ فى تعلم القراءة والكتابة أقرأ ، فهالته السرعة والإصابة ، فقال أتظننى أصدقك فى أنك تقرأ من هذا الكتاب ؟ لا ، إنك تقرأ من حفظك . أمجنون أنا حتى أصدق أنك تقرأ مالا تحفظ ؟ أفى هذه السرعة تعلم ماهذا الحرف وما الذى يليه وهكذا وتعلم حالاته أمفتوح أم مضموم أم مكسور أم ساكن ، وإن تركيب ذلك يكون كذا ؟ وهبك عرفت هذه الكلمة فكيف تعرف صاحبتها بهذه السرعة ، وكيف تجمع من الحروف كلمات ومن الكلمات جملا ، منطلقا كالسهم ، مصيباً كالقضـــاء ؟

وهذا تفكير سليم لو أغفلنا من حسابنا أمر الملكات ، ولكن الملكات كائنات من كائنات هذا الوجود ، ولها هذا العمل الغريب ، والسحر العجيب . أن النجار الذى اكتسب ملكة النجارة يأتى بأعمال أشد إتقانا وأسرع ممن لم يكتسب ملكة النجارة . إنه يدق المسمار بالقدوم مائة مرة ، فلا تخيب منها مرة ، حتى أن صاحبه ليمسك له المسمار وهو يدق آمناً أن تفلت منه ضربة فتصيب يده ، ومن لم تكن عنده ملكة النجارة يدق مائة مرة فلا تصيب رأس المسمار منها واحدة

وإن المرء ليعجب للحائك كيف يسلك الخيوط فى الخيوط المشدودة بحركة سريعة وإتقان عجيب لايدخل الخيط فى غير موضعه المراد له . ولا يعقد ولا يقطع . وإن الملكة لتدخل فى أغلب أعمالنا فتجعلها أعظم إتقاناً وأسرع وتجعلنا نأتى من الأعمال مانحتاج إلى آلاف السنين لنعمله لو لم تكن عندنا هذه الملكات ، فبالملكة نكتب ونقرأ ونتكلم ونحسب ونعمل فى الصناعات المختلفة من حياكة وخياطة ونجارة وحدادة وطباعة مع الإسراع والإجادة والإحسان

ولولا الملكات لما قمنا بهذه الأعمال وسواها إلا مع الخرق والإبطاء كما أريناك فى صفاف الحروف الذى لم يكتسب ملكة فى صنعته . وإن الزمان لأسرع من أن ينتظرنا ، وحاج الحياة شديدة الألحاح تتطلب السرعة والإجادة ، وإن قوة المرء محدودة لاتفى للعمل بدون ملكة لأن ما كان من الأعمال كذلك يقتضى من المرء جهداً ومشقة وتفكيراً تستنفد من قوته ومن دمه وأعصابه ماهو بحاجة إليه

وإنها لحكمة من الله عظيمة أن يخلق فينا الملكات فتجعلنا نجيب مطالب الحياة المتعددة بأقل مايكون من الزمن ، وأيسر ما يكون من الجهد وأسرع ما يكون من الفعل ، لاسيما حاجة التخاطب . فالله أرحم بعباده من أن يقف التخاطب على هذه الجهود المضنية ، والمتاعب الشاقة . والتخاطب عمل دائم ، لاتنقضى منه حاجة حتى تتجدد حاج ، ولا يفرغ المرء من خطاب حتى يستأنف خطاباً آخر ، ولا يفرغ من فهم خطاب إلا إلى فهم مخاطبات أخرى وهلم جرا ...

لقد قلنا الآن مايمكن قوله فى أن اللغات فى الناس ملكات يقتدرون بها على الإفهام والفهم ، وأظن أن القراء آمنوا بذلك لما أوردته من الأدلة

وقد بقى أن أقول فى القضية الأخرى وهى أن الملكة لاتكتسب بقواعد وإنما تكتسب بالمزاولة والتكرار

إذا استقريت الملكات ولاحظت كيف تتكون علمت أن الملكة لاتكتسب إلا بالدأب والمرانة وتكرار العمل لا بالقوانين والعلم المجرد . لاحظ صناعة صف حروف الطباعة تجد أن العامل إنما يكتسبها بمزاولة صف الحروف والتقاط الحرف من مكانه المخصص له وتكرار ذلك حتى تكتسب الملكة ، وليس يكسبها بالعلم المجرد بأن من أراد صف كلمة فليأخذ حروفها المتعددة من أماكنها المخصصه لها وهكذا فإذا أتم صفحة وضعها بين ضاغطين ليمنعاها من الشتات والانفراط

لاحظ صناعة الموسيقى تجدها لاتكتسب بقوانينها الفنية فحسب ، فلا تكتسب بقول الأستاذ : اضرب بالخنصر والبنصر والسبابة وشد الأوتار ؛ إنه بذلك لا يكون عازفاً ولا موسيقياً إنما يكون موسيقياً إذا زاول هذا الضرب مراراً وتكراراً ، فاكتسب أصابعه المرونة والسرعة والاستجابة لما رسمه فى وعاء ، ثم اكتسب نفسه وذوقه بذلك الملكة فى الموسيقى وفنها الجميل

ولو مكثت طول عمرك تقول لمتعلم الحياكة شد الخيوط طولا وأدخل فيها الخيوط عرضاً ذاهباً يمنة وذاهباً يسرة لما تعلم بذلك شيئاً من الحياكة إنما يتعلمها بمزاولة هذه الأعمال حتى تكتسب يده الخفة والمرانة

ولو رددت على متعلم السباحة قولك : اركض برجلك اليمنى فى الماء واضرب بذراعيك ، لما تعلم بذلك السباحة ، ولو سبح معتمداً على هذه القواعد لأدركه الغرق ولذهب ضحية القواعد والقوانين

الآن علمنا أن اللغة فى المتكلمين ملكة ، وعلمنا أن الملكة لاتكتسب بالقواعد ، إنما تكتسب بالمرانة والتكرار، فيلزمنا ـ شئنا أو أبينا ـ الإقرار بأن اللغة لاتكتسب بالقواعد . إنما تكتسب بالحفظ والتكرار وهو المطلوب الذى حاولنا إثباته

أرأيتم أننى كنت مصيباً حين قلت يجب أن نحل مشاكلنا بالعلم ، ويجب أن نعرف طبيعة الشيء وخصائصه لنبنى الحل على هذه الطبيعة ؟

أرأيتم كيف كنا نعلم اللغة على غير طبيعتها ، أرأيتم كيف كنا نمثل دوراً مخجلاً ، فكنا كمن يطرق الحديد وهو بارد فيشقى ثم يشقى والحديد لاينطرق معه ولا يلين ، فيهزأ منه من يراه ، ويضحك ملء شدقيه ، ويرى كيف يشقى الجهل بطبائع الأشياء صاحبه ، ثم لايحظى بطائل ولا كبير فائدة

اكثروا من المطالعة فى كتب الأدب . احفظوا الكثير من أشعار العرب . احفظوا ماتقدرون عليه من الخطب . اروا الأمثال السائرة ، والنوادر الباوعة ، والرسائل البليغة . والمحاورات المذبة . اخلقوا فى بيئتكم المدرسية جواً عربياً لاتتحاورون فيه إلا بالعربية ، فإن لم يكن ذلك فى جميع الدروس ففى دروس اللغة العربية

لتقوموا بروايات تمثيلية تحفظون أدوارها ، وتستظهرون محاوراتها ؟

وليمثل كل منكم دوره باللهجة العربية والتوقيع الخطابى

لا تكتفوا فى العام الدراسى بحفظ مقطوعة أو مقطوعتين ، ولا برسالة أو رسالتين ، بل فلّوا دواوين الأدب واختاروا واحفظوا وأسرفوا فى الحفظ وطالعوا وأسرفوا فى المطالعة ، واكتبوا الرسائل . وحبروا المقالات على غط ما تحفظون وغرار ما تألفون

بذلك وبذلك وحده تحوزون ملكة اللغة ، وتملكون زمام البيان

أسلوب الفطرة في تعليم اللغات

المرانة والتكرار

كيف تعلم الفطرة اللغات ، موازنة بين أسلوب الفطرة فى تعليم اللغات وأسلوب مدارسنا ، وجوب محاكاة الفطرة فى أسلوبها — ما فى المدارس من المطالعة والمحفوظات قليل لا يجدى — عدم عناية المعلمين والممتحنين بحفظ الشواهد والمثل — كل ما فى الوجود يشهد للأسلوب الذى اقترحناه — أمثلة لذلك .

ومن غريب الأمر أن الطريق الذى أشرنا بسلوكه ، والذى أبان العلم أنه لا طريق إلى تعلم اللغات سواه ، هو الطريق الذى هدت إليه الفطرة وسلكته فى تعليم الولدان لغات آبائهم ، وتعليم الأجيال لغة أممهم ، فالفطرة اصطنعت فى تعليم اللغات طريق الحفظ والتكرار ، والمرانة والاعتياد .

ينشأ الطفل فيسمع أبويه وأهليه يتكلمون بمواضعات خاصة فيحفظها وتتكرر على سمعه ، ويعتادها لسانه فتصير ملكة ، وبذلك يحذق لغة قومه .

كأن الفطرة قد علمت أن اللغة فى الإنسان ملكة ، والملكة لا تكتسب إلا بالتكرار ، فاستعملت ذلك فى تعليم أمم الأرض لغاتها ، ولم تخطىء

مرة واحدة فتلجأ إلى طريق القواعد والقوانين لأنها لا تكسب الملكات .

أما نحن فجهلنا ذلك ، وأخذنا نعلم اللغة بالقواعد والقوانين ، ولم نلجأ إلى تعليمها بالحفظ والتكرار ، فكانت الفطرة أقرب إلى الصواب ، وأبعد عن الخطأ ، وأثقب فكراً ، وأسد نظراً ، وكنا أقرب إلى الخطأ ، وأبعد عن الصواب ، وأعظم خرقا . وكانت الفطرة تعلم اللغة أثناء المعاملات اليومية من لعب وقضاء حاج ، وبيع وشراء ؛ أما نحن فقد أحطناها بالقوانين التى يفنى العمر ولا تفنى ؛ فكانت مقتصدة أعظم الاقتصاد ، وكنا مسرفين أشد الإسراف . كانت الفطرة تعلمها بالتدرج من الأسهل إلى الأصعب ، ومن البسيط إلى المركب ، مراعية حال المتعلم ، فتعطيه ما يناسبه ولا يجافى عقله . أما نحن فلم نراع ذلك بل تعمدنا مضادته ، فعلمنا القواعد التى هي فلسفة اللغة ، تعلم بعد تعلمها ، ومرتبتها فى الوجود متأخرة عنها ، فلم تظهر إلا بعد ظهور اللغة بأزمان . أقول علمنا القواعد قبل تعلم اللغة وجعلناها وسيلة إلى تعلمها ، ولم نراع حال المتعلم فجئنا بأطفال الأقسام الابتدائية والتعليم الأولى ، وأخذنا نعلمهم القواعد ، ونعطيهم من العلم ما ينبو عن أذهانهم ؛ فكانت جارية على مقتضى الحكمة ، وكنا جارين على غير مقتضاها ، أو على مقتضى شيء آخر ، وكانت ميسرة كل التيسير ، وكنا معسرين كل التعسير .

وكانت تعلمها أثناء سرد الحوادث اليومية ، وأخبار الجيران ، والأهل والخلان ، والمحادثات السارة والأخبار الممتعة ، وتاريخ الناس وملحهم ، وفى أثناء الأغانى والمدائح والمراثى . وكنا نعلمها فى قواعد جافة خالية من

كل ذلك ، فكانت تعلمها مع المتعة والمسرة . وكنا نعلمها مع الضيق والحرج . ولما راعت ذلك كله كانت ناجحة فى تعليمها كل النجاح ، ولما أهملنا ذلك كله كنا مخفقين كل الإخفاق .

أراني فيما سبق قد أطلت المسافة فى الاستدلال ، وذكرت فى البين أن اللغة ملكة ، وأن الملكة لا تكتسب إلا بالتكرار ، وكنت أستطيع أن أختصر الطريق ، وأقول لننظر إلى الفطرة كيف تعلم اللغة ، ولنحاكها فيما تفعل ، ولنعمل كما تعمل .

وإذا نظرنا هذا النظر وجدناها تعلم أبناءنا اللغة العامية بالتكرار والمحادثة ، وكذلك كانت تعلم أطفال العرب لغة آبائهم . كانوا يسمعون فى طفولتهم من آبائهم ومخالطيهم مفردات اللغة وأساليبها ، والبليغ المأثور من بيانها ، ويتكرر ذلك على أسماعهم ، فيحاكونه ويقلدونه ويتكلمون على نهجه ، فيكتسبون الملكة فى اللغة بالسماع والتكرار والحفظ ؛ فإذا الطفل الناشىء ولسانه البادىء جار على هذه اللغة لا يخطىء ولا يشذ ، ولو حاول جهده أن يحيد عن الصواب لاستعصى ذلك على لسانه ، ولوجد فى ذلك مشقة وعنتا .

إن محاكاة الفطرة فى أعمالها داعية إلى النجاح والتوفيق ، وكلما كان المرء أقرب إليها كان أقرب إلى الصواب ، وأبعد عن الخطأ ، ويكون خطؤه بقدر بعده عنها ، ومجافاته لقوانينها .

ومن سوء حظ المتعلمين أن ما فى المدارس المصرية مما له تعلق بالطريقة الطبيعية قد أهمل ولم يعن به ، وهو فيها صورة لا معنى ، وشكل لا حقيقة ؛

فى المدارس المصرية : حفظ ومطالعة ، ولكن التلاميذ يهملون ذلك الثمد القليل الذى فرضته عليهم المدارس المصريات من المحفوظات ، ولا يحفظون إلا الزر القليل ليقولوه أمام لجنة الامتحان الشفوى ؛ وفيها مطالعة ، ولكن يمر العام كله وهم لم يطالعوا إلا صفحات معدودة . وفى الكتب المقررة شواهد على النحو والصرف والبلاغة ، ولكن التلاميذ لا يحفظون شاهداً ، ولا يستظهرون مثلاً .

وضعت يدى على خمسة تلاميذ اتفاقاً دون اختيار ، وكانوا من تلاميذ الثقافة ، وكان علم البيان مقرراً عليهم وفيه كثير من الأمثلة والشواهد ، وسألتهم واحداً واحداً عما حفظوه من شواهد البيان ، فلم يكن منهم من يحفظ بيتاً واحداً ، ومن المحزن أن الممتحنين لا يقيمون وزناً لذلك ، وأن المدرسين لا يقيمون له وزناً أيضاً ، فلا هؤلاء يحتمون عليهم حفظ الشواهد ، ولا أولئك يرون المقصر فى حفظها مقصراً فى الامتحان .

وهذا إهمال عظيم فى الحفظ والتكرار ، وهو وإن كان محزناً فان لهم العذر كل العذر فيه ، لأنه ثبت فى أذهان الجميع معلمين ومتعلمين أن المعول عليه إنما هو القاعدة ، فإذا فهمت وحفظت فما عداها من حفظ الشاهد والمثل فضل ، ولا يعلمون أن هذا الفضل هو الذى إذا عنى بحفظه وتكراره رسم صورة ذهنية ، يكتب الناشىء على مثالها ، وينسج على منوالها .

وقد علمتنى التجربة أن ما يؤخذ من المحفوظات فى المدارس لا يغنى التلاميذ شيئاً ، فمن الواجب أن يكلف التلاميذ أن يعكفوا على بعض دواوين الأدب ، فيقرؤوها ، ويختاروا منها ، ويجمعوا ما يختارون فى

كراسة ويحفظوه ويفهموا معناه ، وتكون هـذه الكراسة بيد التلميذ عند الامتحان شاهدة على جده وعمله ، فيقدمها للمتحن فيرى أهى كافية أم غير كافية ، ثم يمتحنه فيها من أولها ومن وسطها ومن آخرها ليعلم هل حفظ ما اختار .

وقد علمتنى التجربة أيضاً أن ما يؤخذ من المطالعـة فى العام الدراسى أمام المدرس لا يغنى التـــلاميذ شيئاً ، فمن الواجب أن يكلفوا بكتب يطالعونها أثناء العام الدراسى ويكتبون آراءهم فيها ويلخصون محتوياتها ، وكذلك فى العطلة ، ويكون لهذا وذلك دخل في تقدير الدرجات .

كل ما فى الوجود يشهد لى أن اللغة إنما تـكتسب بالحفظ والتـكرار وأن القواعد لا تغنى فى اكتساب ملـكة اللغة فتيلا .

لعلك جلست إلى بعض الممثلين واستمعت إلى حديثه فرأيته يتـكلم بالعربية لا يكاد يخطىء : وينحدر كالسيل ، ويهدر كالرعد .

ولعلك جلست إلى بطل من أبطال اللغة العربية يعرف قواعـد النحو والصرف والبلاغة لا تـكاد تخفى عليه منها خافية ، فرأيته يتكلم بالعامية لا يكاد يقيم جملة ، ولا يستطيع أن يلين لسانه بالعربية ، فعجبت كيف علك الأول هذا القدر من العربية مع جهله ، وكيف يقصر عنه الثـانى مع علمه .

أتدرى لمَ هذا ؟ إن الأول زاول اللغة العربية عملاً ، وحفظ أدواره فى الروايات ، وألقاها ومرن على ذلك فاكتسب ملـكتها ، فإذا تـكلم صدر عن الملـكة فأجاد ؛ أما الثـــانى فعلم قواعـد النحو والصرف

والبلاغة ، ولم يزاول اللغة حفظاً وعملاً ، فلم يكتسب ملكتها فكان هذا القصور المعيب .

أجلست مع بعض العامة الذين يكثرون من قراءة الجرائد والروايات فرأيته يقيم لسانه بالعربية أكثر من ذلك النحوى الذى جعل همه فى القواعد والقوانين ؟

ولعلك رأيت بعض من لا يعرفون علم العروض والقافية ، ولا يعرفون البحور وأوزانها ، ولا الخبن والطى ، إذا سمع بيتاً مكسوراً أدرك عيبه بمجرد سماعه ، وإذا سمع بيتاً صحيحاً أدرك صحته كذلك ؛ ولعلك رأيت بعض من يعرفون هذه العلوم لا يهتدون لعيب البيت أو صحته إلا إذا أخذوا يتعرفون من أى بحر هو ويجرونه على أوزانه . إن ذلك لأن الأول تربى عنده مقياس ذهنى لأوزان الشعر من كثرة قراءته وحفظه ، فإذا سمع شعراً اختل من هذه المقاييس أدرك ذلك بذوقه ، والآخر لم تربّ عنده هذه المقاييس بل شغل بقواعد الشعر عن حفظه وقراءته والقواعد لا تربى الملكة .

إن كثيراً من علماء العروض لو حاولوا نظم بيت من الشعر أعجزهم ؛ وإن كثيراً ممن لا يعرفون هذا العلم يأتى لهم الشعر طيعاً منقاداً — والسر ما قلناه وكررناه من أمر الملكة والتكرار .

سلوا كل كاتب يحوك الوشى ، وينفث السحر ، وكل شاعر يقول الشعر ، وينظم الدر ، فى مصر وفى بلاد الشرق ، بماذا نلتم هذه المنزلة ووصلتم إلى هذه الدرجة من البيان ، يجيبوك بأنهم لم ينالوا هذه المنزلة

إلا بالقراءة الكثيرة ، والحفظ الكثير ومزاولة الكتابة والحديث .

إن قوانين الوجود صارمة نافذة أبدية . فمن سايرها وعمل على مقتضاها انتفع بها وسار على ضوئها إلى التوفيق ، ومن جهلها لحقه الضرر بهذا الجهل ، ومن أراد التخلص منها ، وحاول أن يخضعها لإرادته عنى نفسه فيما لا يطاوعه ولا يجد إليه سبيلاً .

هل العربية للعرب بالطبيعة

سر اخفاق مدارسنا

فى تعليم اللغات الأجنبيه

[هل العربية للعرب بالطبيعة ـ ابطال ذلك ـ ليس فى استطاعتنا ان نكون البيئة العربية ولكن فى اسطاعتنا ان نقارب — تحميل المتعلمين اخطاءنا — وجوب تجربة اسلوب المرانة والتكرار بعد الاخفاق في اسلوب القواعد — تعدى شؤم اسلوب القواعد الى تعليم اللغات الأجنبية — عدم استفادتنا من مدارس الجاليات بين ظهرانينا — تبعة ذلك]

لقد هال بعض علماء العربية مايرونه من تعلم ولدان الأعراب لغتهم بالطريقة الطبيعية إذ يخرجون يتكلمون بها لايخطئون، ويعربون فلا يلحنون، ووازنو بين هؤلاء الولدان وبين تلاميذهم الذين يعلمونهم على طريقة القواعد والقوانين، فرأوا البون شاسعاً، والفرق واضحاً: هذا يصيب ولايخطيء، وهذا يخطيء ولايكاد يصيب، إذا أخذ الأول بالخطأ لم يطاوعه لسانه، وتعذر عليه الخطأ كما يتعذر على الآخر الصواب. رأوا هذه المشاهدة، ووازنوا هذه الموازنة، فذهبوا إلى أن اللغة العربية للعرب ولأبنائهم بالطبيعة والفطرة، ولغيرهم بالتعليم، وشتان بين ماهو بالطبيعة

وما هو بالتعليم والتكلف ؛ ولن يبلغ المتكلف وإن بلغ الغاية شأو الطبعى الفطرى .

وهذا المذهب غير صحيح وإن كان أصحابه معذورين فى الذهاب إليه .

أما العذر فلأنهم يفنون أعمارهم فى درس اللغة العربية وقوانينها وعللها وأسبابها ، يبذلون طاقتهم ثم لا يجدونهم قد بلغوا ما يبلغه ذلك الغلام الذى ينشأ فى البادية من إجادة اللغة وامتلاك ناصية الشعر والنثر .

وأما أن هذا المذهب خطأ فيدل عليه أنه لو كانت اللغة العربية طبيعية فى العرب لما تخلفت ، لأن ما بالطبيعة والذات لا يتخلف . ونحن نحكم بالتخلف ، فلو أخذت صبياناً من أبناء العرب وربيتهم فى فارس أو الروم لخرجوا يتكلمون الفارسية أو الرومية ، ولم يحسنوا شيئا من العربية ؛ وإذن فليست اللغة العربية فى العرب وأبنائهم طبيعة وليست فيهم لذاتهم ، ولو أخذت صبياناً من أبناء فارس وربيتهم فى بادية العرب لخرجوا يتكلمون العربية ولم يعرفوا شيئاً من لغة فارس والروم . فالصحيح من القول إذن أن اللغة العربية فى العرب وغيرهم بالتعلم والاكتساب ؛ إلا أن الطريقين مختلفان ، فالعرب يتعلمونها بالحفظ والاختلاط وتربية الملكة ، والنحاة يتعلمونها بالقواعد والقوانين ، ويهملون تربية الملكة ، فتكون الطريقة الأولى أجدى وأنفع ، وتكون الطريقة الثانية أخيب وأقل جدوى .

ونحن ليس فى استطاعتنا أن نكون البيئة العربية فنأتى بالطريقة الفطرية ، ولكن فى استطاعتنا أن نقارب ، وأن نقلد الطريقة الفطرية ، فنحسن التقليد ، ونكثر من الحفظ ، ونعمل على تكوين ملكة اللغة بالعادة والدربة والتكرار

أيجمل برجال التعليم أن يخطئوا فى تعليم الولدان اللغة العربية فيعلموا بالقواعد مالا يعلم إلا بالتكرار والحفظ ثم يطالبوهم بكتابة مواضيع تكون جارية على أساليب اللغة ، خالية من اللحن والغلط ، فإن لم يستجيبوا لهم لاموهم ونسبوا إليهم العجز والتقصير ؟

كيف يكتبون كتابة جارية على أساليب العربية ولم تتكون فى أذهانهم مقاييس ونماذج عربية يكتبون على مثالها ؟ وكيف يتكلمون كلاماً جارياً على أساليب اللغة ولم تتكون فى أذهانهم صور ذهنية تدعوهم للتكلم على منهاجها ؟ وكيف نطالبهم بالسرعة والجودة فى الكلام وتوفير الزمن والجهد وهم لم يكتسبوا ملكة اللغة التى بها يكون ذلك ؟

الحق أنكم تستنبطون الماء من الحجر ، وتطلبون فى الماء جذوة نار . الحق أنكم تأتون الأمر من غير بابه ، وتلجمون الفرس من الخلف . الحق أنكم إذ تلومون التلاميذ على خيبتهم فى اللغة تلومون غير ملومين ، وتأخذونهم بذنب أنتم علله ، وبجريرة أنتم أسبابها . ولو أنصفتم لمتم الطريقة التى علمتموهم عليها ، أو بالحرى لرجعتم باللوم على أنفسكم

يا قوم قد جربتم طريقة القواعد فى تعلم اللغة العربية ألف مرة ، وفى كل مرة تخفقون ، وجربتها الأجيال قبلكم كذلك ، فجربوا مرة واحدة طريق الحفظ والتكرار ، وأنا كفيل لكم أن تحمدوا هذه التجربة ، وألا تعدلوا بها غيرها ، ولو بذل لكم ما يستطاع للعدول عنها إلى طريقتكم الأولى لم تفعلوا ، لأنكم قد وجدتم فى هذه الطريقة النجاح حين وجدتم فى الأولى الإخفاق

ونحن نعلم فى مدارسنا المصرية اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية ، كما تعلمها مدارس الجاليات الأجنبية ، ولكن الشركات والبنوك والمحلات التجارية التى تصطنع هاتين اللغتين فى الكتابة والخطابة تفضل أن تستخدم من تخرج فى المدارس الأجنبية على أن تستخدم من تخرج فى المدارس المصرية ، لأن الأول يجيد اللغتين كتابة وحديثاً ، والثانى أبانت التجربة أنه لا يجيدهما كأخيه . أتدرون لم ذلك ؟ إن شؤم طريقة تعليم اللغة بالقواعد قد تعدى إلى هاتين اللغتين ، فمدارسنا المصرية تعلمهما على طريقة حفظ القواعد ، أما المدارس الأجنبية فتعلمهما على الطريق الطبعى طريق الحفظ والتكرار والمحادثة حتى تثبتهما ملكتين راسختين فى النفس فيجيد تلاميذها الكتابة والحديث بهما ، ومن أين لتلاميذ المدارس المصرية أن يجيدوهما وهم إنما عرفوا القواعد ولم يجعلوهما ملكتين بالحديث والتكرار ؟

ومن ذلك تعلم أن هذا الإخفاق لا يرجع إلى قصور فى عقول التلاميذ المصريين ولا إلى كسل يستولى عليهم ، وإنما يرجع إلى هذا الأسلوب العقيم . وهذا هو السر أيضاً فى كثرة التلاميذ الذين يرسبون فى هاتين اللغتين ، فنحن الذين يجنون عليهم ، ثم نحملهم جريرة عملنا ، ونأخذهم بذنوبنا

سمعت أحد أبنائى يردد صيغاً من اللغة الإنكليزية ويقول هذا للمذكر وهذا للمؤنث وهذا للجمع

فقلت له : ماذا تفعل ؟ قال : أحفظ درس القواعد . قلت له : ماهكذا يكون ، ينبغى أن تأتى بجمل تامة من اللغة الإنجليزية فى مخاطبة المذكر

ومخاطبة المؤنث والجمع ، وتفهم معناها وتكررها وتحفظها ، وتتحدث بها حتى تكون ملكة ، ثم تأخذ القاعدة منها إن شئت . هذا هو الأسلوب الفطرى فى تعلم اللغة ؛ أما أن تأخذ اللغة من القاعدة فهذا ليس طريقاً طبعياً . لقد كان يعجزنا ونحن تلاميذ أن نحفظ قواعد اللغة العربية ، فكنا نستعين عليها باستنتاجها مما نحفظ ومما رسخ فى أذهاننا ، وصار ملكة فينا . مثلا : إذا كنا لا ندرى ما عمل كان وأخواتها ، وما عمل إن وأخواتها ، رجعنا إلى ما رسخ فى نفوسنا ، واستشرنا ملكاتنا ونطقنا بأمثلة نحفظها ، فيها كان وإن ، ونرى كيف تنطق بها ألسنتنا ، كقوله تعالى : « كان الله غفوراً رحيما » ، « وإن الله على كل شىء قدير » . ونستنبط من ذلك أن كان ترفع الاسم وتنصب الخبر ، وأن إن تنصب الاسم وترفع الخبر ، وهذا تقريب لما أريد أن يكون فى تعليم اللغات . أريد أن تثبت الأساليب والألفاظ بالحفظ والتكرار حتى تكون ملكة ، ثم تستنتج منها القواعد ، ولا أريد أن تحفظ القواعد لتعلم منها الأمثلة ، فإن ذلك لا يجعلها ملكة إلا أن يلجأ إلى الحفظ والتكرار

ومن العجب أن تمكث هذه المداوس بين ظهرانينا هذا الدهر الطويل ونرى أسلوبها الناجح فى تعليم اللغات ، ونلمس نجاحه ولا نقتبس منها هذا الأسلوب !

أيرى قوم طائفة تعمل عملاً فتنجح ، ويعملون هم هذا العمل فيخيبون ، ولا تدعوهم أنفسهم لترك أسلوبهم واقتباس أسلوب الناجحين ؟ وأعجب من هذا أن ترى هذه المدارس أسلوبنا الخائب . وتلمس خيبته فلا

تنصحنا ولا ترشدنا إلى الطريق القويم فى تعليم اللغات

أيستطيع أحد أن يرى ضالا يمشى على غير الجادة تنكبه الأحجار وترديه الحفر ، ولا يقيمه على الجادة ؟

لست أدرى أأرجع باللائمة علينا لعدم استفادتنا منهم ، أم أرجع باللائمة عليهم لعدم إرشادنا ؟ ولكن يظهر أن بين الجماعات منافسة كما بين الأفراد ، فلا ترى جماعة ضالة وتهديها السبيل . فإن كان ذلك كذلك فقد أغناكم الله عن أجنبى يضن عليكم بالنصيحة . وها كم النصيحة من رجل من أنفسكم يحب لكم يود خيركم ، ويحرص على نفعكم ، ويعز عليه أن تضيع جهودكم ، وأن تبدد أعماركم . وهو ناصح أمين ؛ فهل أنتم منتصحون ؟

مـــا في الملـكات

من اسرار عجيبة

استغلال الأسلوب الجديد فى تعليم اللغات بأجمعها — بركته على التلاميذ وعلى أهليهم — امكان استغلاله فى مشكلاتنا الأخلاقية والاجتماعية — قوة العلم — الظن بأن الملـكة لا تستطيع الاهتداء إلى التفاصيل الـكثيرة — إقامة الدليل على إبطال ذلك — زعم ابن جنى أن العرب كانت تعرف قواعد النحو والصرف — الرد عليه فى ذلك — الاطمئنان إلى الملـكات — بيان أن طريقتنا تجعل علوم العربية فوق العلم بها ملـكات — انتصار العامية على العربية بظفرها بأن كانت ملـكة — اخفاق القرون لم يصرفنا عن الطريقة القديمة .

لقد استغللنا ما استنبطناه من علم يتعلق بتعليم اللغة فى تعليم اللغة العربية ، وفى تعليم اللغة الإنـكليزية ، وفى تعليم اللغة الفرنسية ، وأصبح فى استطاعتنا أن نتقى الإخفاق فى تعليم اللغة الإنجليزية والفرنسية ، وأن نتقى هذا الرسوب الذى يمنى به تلاميذنا فى آخر كل عام دراسى فى هاتين اللغتين والذى يبلغ فى بعض السنين ٧٨٪ ، ووهبنا للتلاميذ أعماراً بقدر الأعوام التى وقيناهم فيها الرسوب ، والتى كانوا يرسبون فيها لولا أخذهم

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

بهذا المنهج الجديد ، ونفينا عنهم وعن أهليهم ذلك الحزن الذى كان يستولى عليهم فى آخر كل عام دراسى بهذا الرسوب . ووفرنا على أهليهم تلك الأموال التى كانوا ينفقونها فى إعادة الأعوام التى رسبوا فيها . ومن ذلك يعلم أن الباب الواحد من العلم إذا استغله أهلوه كان عظيم البركة جليل النفع ، وربما كان أجدى على الأمة والأفراد من كثير من الخيرات المادية .

ولسنا نستغل هـذا الباب من العلم فى تعليم اللغات فحسب ، بل سنستغله فى كثير من مشكلاتنا الأخلاقية والاجتماعية والسياسية ، فيرى كيف يعظم نفعه ، وتحل بركته ، وكيف يجلب من الخير ما لا يدركه الوهم ، ولا يحصيه العد .

وهذا وأمثاله هو الذى جعلنى أؤمن بالعلم وأعظمه وأجله ، وأرى أنه ما من خير للأفراد والأمم إلا وهو مصدره ، وما من شر يصيب الأفراد والأمم إلا وللجهل يد فيه ظهرت أو خفيت .

* * *

لعل قائلاً يقول : إنك آمنت بالملكة فى كسب اللغة العربية إيماناً لا تزعزعه الشكوك ، وظننت أنها تفيد فى كسب العربية كما تفيد فى كسب اللغة الإنجليزية والفرنسية ، ولم تفطن إلى ما بين اللغة العربية وسائر اللغات من فارق .

إن اللغة العربية كثيرة الأحكام ، متشعبة الفروع ، فلا تستقل الملكة بضبط هذه الأحكام الكثيرة ، ولا يضبطها إلا العلم المفصل بالقواعد

والقوانين ، وسأضرب مثلا (لا) العاملة عمل إن ، فإن شرط عملها هذا العمل :

١ — أن تكون نافية

٢ — وأن يكون المنفى الجنس

٣ — أن يكون نفيه نصاً

٤ — ألا يدخل عليها جار

٥ — أن لا يكون اسمها نكرة

٦ — أن يكون متصلا بها

٧ — أن يكون خبرها نكرة — فإن كانت غير نافية رفع ما بعدها ، وإن كانت لنفى الوحدة عملت عمل ليس نحو لا رجل قائماً بل رجلان ، وإن دخل عليها الخافض خفض ما بعدها نحو جئت بلا زاد ، وإن كان الاسم معرفة أو منفصلا عنها أهملت نحو لا الدار دار ولا الجيران جيران ، ونحو لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون .

هذه أحكام كثيرة ولا يسعف بها إلا معرفة القواعد ، فأما الملكة فلا تستطيع الاهتداء إلى هذه التفاصيل .

ونحن نقول لهذا القائل إنك أسأت الظن إذ ظننت أن الملكة لا تهتدى إلى الفروق الخفية والمداخل المتشعبة ، إنها أهدى من القطا ، وإن الإنسان يطمئن إليها فى الهداية إلى ما يشتجر من الأحكام . إنها تهدى المرء إلى الصواب الجارى على القواعد وإن لم يعرف القواعد . أنظر إلى الهمزات فى علم الرسم كيف يكتب المرء يئد على ياء ، ويأمن على ألف ،

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

ويؤمن على واو ، تهديه ملكته التى اكتسبها بالمرانة والتكرار وإن لم يعلم القاعدة أو لم يستحضرها .

وكذلك الألفات ما يكتب منها ألفاً وما يكتب منها ياء ، فيكتب المرء رمى بالياء ودعا بالألف ، كأن فى منطقة اللاشعور فينا عالماً يعلم أن رمي أصلها الياء فتكتب ياء ، ودعا أصلها الواو فتكتب ألفاً ، ويكتب أغزى بالياء ، كأن عالماً فينا يعلم أنها وإن كان أصلها الواو إلا أنه لما قيل فيها أغزيته كتبت ياء .

يعجب المرء كيف تهدى الملكة إلى الحق كأنما تستعملى من قواعد مكتوبة ، وتمتاز الملكة عن القواعد بالسرعة التى لا يبلغها الرجوع إلى القواعد . ولقد بلغ من اهتداء الملكة أنها تكتب المطرد على حسب القاعدة والشاذ على ما قيل من شذوذ ، فهى تكتب داود بواو واحدة ، وتكتب بعمرو بواو بعدها ، وتكتب مائة بألف زائدة وإن لم تكن فى هجائها .

فإذا كانت هداية الملكة ما ذكرنا فى الكتابة فلا عجب أن تهدى مثل هذه الهداية فى الكلام .

قال أبو الفتح عثمان بن جنى م ٣٩٢ فى كتابه الخصائص : سألت الشجرى يوماً فقلت له : يا أبا عبد الله ! كيف تقول : ضربت أخاك ، فقال : كذاك . فقلت أفتقول ضربت أخوك ؟ قال لا أقول أخوك أبداً . قلت : فكيف تقول ضربنى أخوك ؟ فقال : كذاك . فقلت ألست زعمت أنك لا تقول أخوك أبداً ؟ فقال : إيش ذا ؟ اختلفت جهتا الكلام . نقل أبو الفتح هذه الحكاية فى باب عنوانه أن العرب قد أرادت من العلل

والأغراض مانسبناه إليها وحملناه عليها . واستدل بها على أن العرب كانت تعرف قواعد النحو والصرف ، ورأى أن ما قاله الأعرابى نظير قول النحاة : صار المفعول فاعلاً .

وليس ما ذهب إليه ابن جنى من الاستنتاج صحيحاً . فهـذا العربى لم يكن يرجع إلى قواعد ، وإنما كان يرجع إلى ملـكته يستشيرها ويستهديها فنبت ملـكته عن ضربت أخوك ، ولم تنب عن ضربنى أخوك ، كما تنبو ملـكة الـكاتب عن كتابة الهمزة فى يئد بالواو وفى يؤمن بالياء ، وإن لم يعرف القاعدة ولم يستشرها .

لعلنا بذلك قد طمأنا الذين يشفقون على اللغة من أن يكلوها إلى الملـكة ، ويرون أن الملـكة لا تـكفى هادية ، لأن مذاهب العربية مختلطة متشعبة قريب بعضها من بعض ، لا يفرق بينها إلا العقل الواعى والعلم البصير . وقدمنا من الأدلة ما يدل على أنهم إذا وكلوها إلى الملـكة فقـد وكلوها إلى حفيظ أمين .

فليتأمل هـؤلاء الذين يصدون — أو سيصدون — عن طريقنا فيما نحاول ، أننا نحاول كسباً جديداً للغة العربية ، فبدل أن تقصر على عـلم قواعدها تـكون لنا ملكة وهيئة راسخة من هيئات نفوسـنا وجزءاً من كياننا ، وتـكون هذه الملـكة دعامة لفهم اللغة وتذوقها ، ولفهم قواعدها وأصولها دون جهد أو عناء .

ليعلم هؤلاء الذين يحبون النحو والصرف وقواعد البلاغة ، أننا نحب النحو والصرف وقواعد البلاغة أكثر منهم حين ندعو إلى تعليم اللغـه

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

بأسلوب يكوّن ملكة اللغة فى نفوس المتعلمين ، لأننا نريد أن نجعل قواعد النحو والصرف والبلاغة فوق العلم بها ملكات لنا مختلطة بلحومنا ودمائنا ، غائصة فى أعماق نفوسنا ، وداخلة فى منطقة اللاشعور فينا .

لقد ظفرت اللغة العامية مع عدم الاحتفال بها والعناية بتعلمها بأن صارت ملكة فى النفوس ، فغلبت اللغة العربية التى لم تظفر بذلك إلى الآن ، وكانت لغة البيت والشارع والمدرسة ؛ ولغة الدرس والخطاب ، ولغة الأغاني والمسرح والخيالة ، وليس للغة العربية حظ فى شىء من ذلك إلا أنها لغة الكتابة ، والذين يكتبون بها قليل ، وهذا القليل لم يكتسب الكتابة من القواعد وتعلمها ، إنما اكتسبها من طريق الحفظ والقراءة وتذوق الكثير من بليغ المنثور والمنظوم ، ومن مزاولة الكتابة والكلام بها ، حتى اكتسب نماذج ذهنية فى نفسه ومناطق اللاشعور فيه ، يتكلم على مقتضاها ، وينسج على منوالها ، فلم لا نسعى لرفع اللغة العربية من مجالها الضيق المحدود إلى المجال الواسع غير المحدود ؟

لم نتركها خافتة ضئيلة النفوذ محدودة السلطان بعيدة عن الجماهير وعن كثير من الخاصة ، لا تعرفهم ولا يعرفونها ، مقصورة على طبقة قليلة من خاصة الناس ؟

إنما أريد بما أعرض من هذا التوجيه الجديد أن ننقذ اللغة العربية من سيطرة العامية وأن نوسع دائرة نفوذها فى شؤون الحياة .

يا سبحان الله ! أيعلم كل صانع فى الدنيا أنه لا يحذق المتعلم صنعته إلا بالمرانة والتكرار ، فلا يكتفوا بالقاء القواعد للمتعلمين وحفظها ، بل

يأخذونهم بالدربة والمرانة على أعمال صنعتهم الجارية على حدود قواعدها حتى يحذقوا صناعتهم ، ولا يعلم ذلك رجال العلم فى بلاد الشرق منذ آماد طويلة ، فاكتفوا فى تعليم اللغة بدراسة قواعدها ورأوا تلك السبيل المثلى فى تعلمها ، وأنها تفيد الطالب الناشىء ، وتجعله قادراً على التعبير بها فى صحة وإتقان ! ومن عجب أن إخفاق القرون فى هذا السبيل لم يصرفهم عنها ليبحثوا عن منهج أسدّ ، وطريق أقوم

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

المنهج الجديد في تعليم العربية

ما فيه من فوائد

وجوب حذف القواعد من التعليم الابتدائى والأولى ، استبدال المطالعة والحفظ بها — اختيار المحفوظات المناسبة لأذهان التلاميذ — تعهد المدرس التلاميذ فيما يحفظون — وجوب بقاء التعليم بالحفظ والمطالعة فى التعليم الثانوى ، زيادة القواعد — مرحلة التعليم العالى — خلق جو عربى — ما فى المنهج الجديد من متعة للتلاميذ والمدرسين — ما فيه من فوائد اخلاقية واجتماعية ومن علم بالحياة — خلو درس القواعد من ذلك كله — التحذير من الأدب المكشوف الماجن — بيان ضرره بالأخلاق — الكلمة الآن لأولى الأمر .

لا أريد أن أضع منهاجاً مفصلاً للطريقة الجديدة لتعليم اللغة العربية ، وإنما أريد أن أضع قواعد مجملة تتبع عند وضع هذا المنهاج ، وهذه مبنية على ما تقدم بحثه .

يجب أن يحذف درس القواعد من التعليم الابتدائى والأولى ، لأن القواعد كما قلنا لا تكسب ملكة اللغة ، وإنما هى فلسفة للغة وضوابط ؛ فمن الواجب أن نسعى فى أن نكون للناشىء ملكة اللغة أولاً .

يجب أن نستبدل بالقواعد المطالعة الكثيرة والحفظ الكثير والمحادثة والمحاورة .

ويجب أن يختار للتلاميذ ما يحفظونه بحيث يكون مناسباً لأذهانهم لا يعلو عليها ، وتؤلف لهم محاورات يحفظونها ويتحاورون بها وتكون مما تكثر فى الكلام ويحتاج إليها فى الخطاب .

ويجب أن يعلم أن هذه المحفوظات تحفظ لتكون نموذجاً ذهنياً ليقيس عليه كلامه من حيث لايدرى ، فيجب أن يعنى بهذه النماذج فتحفظ صحيحة لا غلط فيها ، ومعربة لا لحن فيها ، فإنه إذا حفظها ملحونة ارتسم النموذج فى ذهنه كذلك ، فنسج على منواله ، وأنفق مما اكتسب ويجب على المدرس أن يراعى تلاميذه ويعلم موطن الضعف فى لغتهم ويزودهم بما يزيل ضعفهم ، ويقوم لسانهم ، فإن رأى منهم أنهم يجرون الفاعل فى أحاديثهم فليعلم أنهم بحاجة إلى أن يحفظوا كثيراً من المقطوعات فيها أمثلة كثيرة للفاعل ، وليأخذهم بحفظها صحيحة غير ملحونة .

أما مرحلة التعليم الثانوى فيجب أن يظل التعليم بالحفظ والمطالعة فيها ويزاد عليه قواعد اللغة ، ولكن ليست القواعد التى بين أيدى التلاميذ الآن ، بل القواعد التى سأقدم مشروعها ، والتى تجمع الصدق والوضوح والسهولة .

ويجب ألا تقل العناية بالحفظ والمطالعة فى هذه المرحلة بل يجب أن تزيد ، ويجب كما قلنا أن تؤلف لهم روايات تمثيلية أخلاقية يحفظون أدوارها ويقومون بتمثيلها .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

ويجب كما قلنا أيضا أن يكلف التلاميذ بنخل دواوين الأدب واختيار أحسن ما يقرؤون ، ثم بحفظ أحسن ما يختارون ، وأن تعطى درجات لمن قام بعمل ذاتى فى أيام العطلة الصيفية فى الحفظ والمطالعة .

أما مرحلة التعليم العالى فهى كمرحلة التعليم الثانوى فى الحفظ والمطالعة والقواعد ، ولكن يجب أن يتعمق فى درس هذه القواعد ، وفى بحث أصولها وفى الموازنة بين مذاهب العلماء فيها .

فأما خلق جو عربى فى المدرسة ، أو فى دروس اللغة العربية خاصة لا يتكلم الطلاب والمدرسون فيه إلا باللغة العربية ، وتكليف التلاميذ بكتابة موضوعات ينشئونها فقد سبقت الإشارة إليها فيجب أن تدخل فى البرنامج الجديد لتعليم اللغة .

وينبغى أن يعلم أن تكليف التلاميذ بموضوعات ينشئونها ليس لغواً فى طريقتنا كما هو لغو فى الطريقة الأولى ، لأن الطريقة الأولى كانت تكلفهم الإنشاء وليست عندهم معان يكتبونها لقلة مايطالعون ومايحفظون ، وليست عندهم ملكة اللغة العربية ؛ أما فى الطريقة الحديثة فهى تكلفهم الإنشاء وعندهم معان خلقتها المطالعة والحفظ والاطلاع على آراء العلماء ، وهى تكلفهم وقد رسخت فى نفوسهم ملكة اللغة بالحفظ والمطالعة والحديث وسيسر ذلك المعلمين ويجعل الدرس لذيذاً لأنهم إذ يصححون كراسات التلاميذ فى الإنشاء لايطلعون على لغو من القول يقذى العين ويغثى النفس كما كان فى الماضى ؛ بل يطلعون على أقوال لها حرمتها ومكانتها إذ هى بنت المطالعة الكثيرة والدرس الطويل .

ذلك أسلوب نراه كفيلا بكل ما نريد من رقى لغوى وبيانى لأنه كفيل بتكوين الملكات فى اللغة والبيان ، وبهذه الملكات تفهم اللغة وتتذوق أولاً ، وتفهم أصولها وقواعدها ثانياً ، ونراه كفيلا أيضا بامتاع المتعلم وإلذاذه ، وكفيلا بفائدته وخيره .

فأما إمتاع التعليم بهذه الطريقة فإنها تعلم اللغة بآداب السالفين ، وحكم الماضين ، وبالأشعار البليغة ، والخطب الفصيحة ، وتواريخ الأمم ، وفى كل ذلك غذاء للعقل ، وإرضاء للقلب ، وإمتاع للعاطفة ؛ والمرء يسر ويأنس للخبر الغريب ، والنادرة الطريفة ، والحكمة النافعة ، والمثل السائر ، والجواب المسكت ، والقول السديد ، والرأى الحميد ، وهذا كله جعل فى الطريقة الحديثة مادة لتعليم اللغة . يطالع فيه ، ويحفظ منه ؛ والقول إن كان بليغاً ، والمعانى إذا كانت رائعة أنست بها النفوس ، وهشت لها ، ووجدت فيها المتعة واللذة .

وأما الفائدة فأى فائدة أعظم من التأدب بآداب العلماء ، والاطلاع على حكمة الحكماء ، والانتفاع بتجارب ذوى التجارب ، وهذا كله جُعل فى طريق تعليم اللغة ؛ والكلمة الطيبة إذا نزلت بالنفس وعلقت بها واستوثقت منها ، وأيقنت بها ، فإنها تكون هادية ومرشدة ، ينتفع بها المرء فى غدوه ورواحه ، وصبحه ومسائه ، كما قال الله تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها »

والمرء ماعاش بحاجة إلى الأدب الذى به تعمر القلوب ، وتزكو

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

النفوس . قال عبد الله بن المقفع : (ولسنا إلى مايمسك أرماقنا من المأكل والمشرب بأحوج منا إلى مايثبت عقولنا من الأدب الذى به تفاوت العقول وليس غذاء الطعام بأسرع فى نبات الجسد من غذاء الأدب فى نبات العقل . ولسنا بالكد فى طلب المتاع الذى يلتمس به دفع الضرر والغلبة بأحق منا بالكد فى طلب العلم الذى يلتمس به صلاح الدين والدنيا) ؛ وإن المرء قد يفيده الحرف من الأدب ويكون أرد عليه من جيش عرمرم ؛ قال معاوية : لقد رأيتنى وأنا أهم بالفرار يوم صِفّين وما يمنعنى إلا قول الشاعر :

وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى

فأين من هذا كله القواعد وليس فيها متعة ولا لذة ؛ فليست عاطفية حتى تثير العاطفة والوجدان ، وليست عقلية حتى تكون فيها لذة المعقولات لمن اعتاد المعقولات ؛ إنما اللغة مواضعة واصطلاح ، وقواعد اللغة شرح وتفسير لهذا الاصطلاح ، وليس فيها إلا بعض علل عقلية ؛ وهذا مغمور وسط علل مدخولة ، وأسباب غير معقولة .

وكما أنها لاتثير لذة ولا تبعث متعة ، كذلك لاتحصل منها على فائدة ، وما الفائدة منها وهى ليست حكمة ولا مثلاً ، ولا شرحا لقانون من قوانين الحياة وهي تبعد عن الحياة وتجاربها وعن محيطها الواسع وبحرها الجياش المضطرب ؟ وإن الذي يقرأ كتاباً فى القواعد كالأشمونى أو المطول ، يخرج منه ولم يستفد خبرة بالحياة ، بخلاف من يقرأ كتابا كالكامل لأبى العباس المبرد ، أو البيان والتبيين لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ؛ فإنه يخرج منه بحكمة الدهور ،

وعظة الأيام ؛ ومهما فاته فلن تفوته حكمة أو تجربة هى عصارة عصور ، وخلاصة دهور .

وما أظن الأمم الإسلامية منيت بما منيت به ، بعد العز والمنعة والقوة والصولة إلا من شغل علمائها وخاصتها طول عمرهم بكتب القواعد التى لاتكشف إلا عن طرف يسير جداً من هذا الكون الواسع ، أو بالحرى لاتكشف عن شىء إلا عن مواضعة وإصلاح وتفسير لهذه المواضعة وهذا الاصلاح ؛ ومن انصرافهم عن هذا الكون الفسيح وعلومه ، وعلل حوادثه وأسبابها ، وشؤون النفوس وخواطرها ، وتزكيتها وتدسيتها .

ماهذا الحظ العاثر ؟ قد جمع لنا المتقدمون أبواب الحكمة وتجارب الحياة ، وكانوا أحرص الناس على حفظها حتى ينتفع بها من بعدهم وكان حرياً بنا أن نغترف من هذه الموارد العذبة ، ونسقى من هذا السلسبيل الصافى ، ولكن كان نصيب النافع منا الاعراض والنفور ، ونصيب غيره الاقبال عليه والكلف به .

أى شىء أنفع وأجدى من حكم أفادها أصحابها بعد التجارب المرة والعثار والخيبة ، والتردى والسقوط ، وبعد النيل تارة ، والاخفاق تارات وبعد أن ذاقو حلو الحياة ومرها ، وصفوها وشوبها ، فأفادتهم التجارب علماً ، فجمعوا هذا العلم فى جمل قصيرة ، وحروف قليلة ، لتكون أقل كلفة وأيسر مؤونة ، ليسهل حفظها وادخارها إلى وقت الحاجة لينتفع بها ؟

وهنا شىء أرى من الواجب أن أنبه عليه ، وهو أن اسم الأدب أطلق

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

كذبا وزوراً على تلك الأبيات من النسيب والغزل المذكر والمؤنث ، وعلى وصف الخمر ومجالس الشراب ، وعلى أبيات البطالة والعجز ، وعلى أخبار الفساق والمجان ؛ فيجب أن يتحرز من هذه ولا تدخل فى مطالعات التلاميذ ومحفوظاتهم لأن تأثيرها على الأخلاق شديد ، وإفسادها للمروءات عظيم ، فكم من مستقيم أخرجه عكوفه على هذا الأدب الزائف عن استقامته ، وكم من جادّ همه المعالى وعظائم الأمور صيره هذا الأدب الزائف مسفاً ضئيل الأمل ؛ ولا يصح أن ينكر هذا كله ، فان تأثير القول فى النفوس عظيم ، ونقضه للأسباب المتينة قوىّ ، ويجب إذ آمنا بتأثير الكلمة الصالحة فى النفوس أن نؤمن بتأثير الكلمة السيئة فيها أيضاً ؛ فإن المعانى إذا كسيت الألفاظ الرائعة ، والنظم البارع كانت حبيبة إلى كل نفس ، وكانت مداخلها إلى النفوس خفية ، ونقضها للطبائع المحكمة عظيما ، ولأمر ماحذر النبي (ص) من كل منافق جهول القلب عليم اللسان .

وإذا دار الأمر بين تعليم اللغة من سبيل هذا الأدب الزائف وجهلها ، اخترنا جهلها ، لأنه خير لنا أن نعرب فى أفعالنا ونلحن فى أقوالنا من أن نعرب فى أقوالنا ونلحن فى أفعالنا .

الآن أشعر بما يشعر به من كان يحمل حملاً ثقيلاً فمشى به أميالاً فى صحراء محرقة حتى ارفض عرقاً ، وتقطعت أنفاسه تعباً ، ثم بلغ به مستراحاً ومقيلاً ، فرمى بحمله وجلس بجانبه ، فشعر بالراحة من ذلك الحمل الذى بهظه وأنقض ظهره .

أشعر بذلك لأنه كان حملاً ثقيلاً تلك الأمانة التى أخذ الله على العلماء ألا يدخروا نصحاً ولا يجدوا سبيلاً لرفع أممهم إلا أرشدوهم إليه ، ونبهوهم عليه ؛ وقد كان يحزننى أن تعلمنى التجارب ما علمتنى من قيمة القواعد فى تعليم اللغة ، وضرر الشغل بها عن علوم الحياة ثم أكتمه ولا أبوح به ، والآن ولله الحمد قد خرجت من عهدة الكتمان ؛ فبحت به ، ولم أكتف بالبوح حتى أعلنته ، ولم أكتف بالإعلان حتى دللت عليه ، ولم أكتف بالتدليل حتى صرفت القول على وجوه شتى من التزيين والتقبيح والترغيب والتحذير ؛ الآن وضعت الحمل وحمله آخرون .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الصعاب التى تعترض

تكوين ملكة اللغة العربية وتذليلها

مما يعوق تكوين ملكة اللغة العربية اللغة العامية ، العامية سبقت فصارت ملكة ، فبعيد بعد أن نجعل العربية ملكة لأن العامية تحريف للعربية — العامية تلاحقنا فى كل مكان فهى لغة البيت والشارع والمدرسة والأغانى الخ — رد هذه الشبهة بوقوع ذلك — كثير منا اكتسب العربية بعد أن اكتسب العامية ، اللغة ملكة والملكة لا تكتسب إلا بالتكرار قانون ثابت فيجب رد ماخالفه ، هل امتنعت المدارس الأجنبية من تعليم اللغات بحجة أن لغتهم صارت ملكة فتمنع غيرها — رد ذلك بجواز تغيير الأخلاق والأخلاق ملكات — على أننا أخذنا بالحيطة بجمعنا بين الأسلوبين — وجوب جعل لغة الأغانى والمسرح والصحف الأسبوعية لغة عربية — العربيه لا تعوق تكوين ملكة العربية بل تعاونه .

لقد فاتحت كثيراً من رجال التربية والتعليم فى مصر — ممن يهتمون باللغة العربية — فى هذا الأسلوب الجديد فى تعليم اللغة ، فكانوا جميعاً يلقوننى بشبهة واحدة قد اتفق الجميع عليها وكأنهم تواطأوا على إيرادها ؛ أوردها من لا أحصى ممن يهتمون بشئون التعليم فى مصر ، ومن قبل ذلك أوردتها فيما بينى وبين نفسى .

وهذا دليل على قوتها ، وقرب تناولها ؛ فإن استطعت حلها فقد ذللت عقبة كأداء فى سبيل الإصلاح المنشود .

يقولون جميعاً : مما يعوق تكوين ملكة اللغة العربية عندنا أن اللغة العامية سبقت إلينا فتكونت ملكتها فينا ، واللغة العامية تحريف للغة العربية وخطأ فيها ، فإذا تكونت فينا ملكة اللغة العامية فهذا معناه تكون ملكة الخطأ فى اللغة العربية ، وإذا سبق الخطأ وصار ملكة تثبت ورسخ ، فإذا أريد بعد ذلك إصلاحه وصيرورة هذا الإصلاح ملكة تعذر واستحال .

ومما يزيد الأمر تعذراً واستحالة أننا لا نزال نسمع من والدينا وإخواننا وأهلينا ومخالطينا وأصدقائنا اللغة العامية ، يتكلمون بها ونكلمهم ، ونتفاهم بها ونتساجل ، فهى لغة البيت ولغة الشارع ولغة المدرسة ولغة الأغانى ولغة التمثيل ولغة الخيالة ولغة بعض المجلات ، أينما توجهنا وجدناها ، وحيثما أصغينا سمعناها ، وهذا معناه أن الخطأ واللحن فى اللغة العربية سبق فصار ملكة ، أنه لا يزال يتردد على أسماعنا ونردده فيزداد رسوخاً ، حتى يختلط بلحمنا ودمنا فمهما فعلنا للتخلص من ملكة اللحن والخطأ لم يفدنا ، وكلما هربنا من هذه الملكة لحقتنا ؛ فأين النجاة وأين المهرب ؟ وهى قد سبقت فاستحكمت فينا ثم أخذت تلاحقنا وتسابقنا وتتغلب علينا وتقهرنا . ولعل هذا هو الذى دعا الأقدمين إلى أن ييأسوا من تكوين ملكة العربية الصحيحة ، فاكتفوا بالقواعد والقوانين التى

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

تضبط أمرها مع التنبيه والمعالجة ، ولم يسموا إلى ملكتها التى تعطى التعبير بها دون قصد ولا تنبه ولا تكلف ولا علاج .

وإنى أقول فى جواب هذه الشبهة أن ذلك يبين عسر اكتساب ملكة العربية لا تعذره ، والمشقة لا الاستحالة ؛ فإنه لو استحال تكوين ملكة العربية مع سبق ملكة العامية لما وقع لأحد . وكيف وقد وقع للكثير من رجال اللغة والأدب ؟ حقاً إن هذا دليل على التعسر لا على التعذر ، بدليل أننا نجد خلافه من نفوسنا وخلطائنا ؛ فكثير منا قد سبقت إليه فى صباه ملكة العامية ، ثم عنى بكسب ملكة اللغة العربية بالحفظ والمرانة فاكتسبها ، ولم تمنعه الملكة السابقة أن يكتسب الملكة اللاحقة ؛ بل إنى لأزعم أنه لا يكتب الكتاب ، ولا يشعر الشعراء ولا يخطب الخطباء باللغة العربية إلا بفضل الملكة التى اكتسبوها من القراءة والحفظ والاعتياد والتى قاومت ملكات العامية فى نفوسهم فغلبتها وظهرت عليها لا بفضل القواعد وحدها .

لقد قام الدليل على أن لا سبيل إلى اكتساب اللغة إلا هذا السبيل ، وهو أن اللغة ملكة والملكة لا تكتسب إلا بالتكرار ، فاذا تعين هذا السبيل بالدليل فلا معنى لتصيد الشبه من هنا ومن هنا للهروب مما أوجبه الدليل وعينه الحجة ؛ وهل توقفت المدرس الأجنبية عن تعليم تلاميذها لغة غير لغتهم بطريق الحفظ والحديث بحجة أن لغتهم صارت ملكة فيهم فلا يمكن أن يكتسبوا ملكة لغة أخرى ؟ الواقع أن من الناس من يجيد لغات كثيرة وكلها ملكات فيه ، وقد اكتسبها بطريق المحادثة

والحفظ ولم تزاحم ملكة اللغة ملكة لغة أخرى عنده ، وإن كانت ملكة بعض اللغات عنده أقوى من بعض فذلك لا يعنينا ، لأننا فى أصل تحصيل الملكة لا فى جودتها والمفاضلة بين الملكات بعضها وبعض . إن علماء الأخلاق قد جزموا بإمكان تغيير الأخلاق وقالوا إنه يمكن أن يكون الجبان شجاعاً ، والبخيل كريماً ، والشره عفيفاً ؛ والأخلاق ملكات ، والخلق الذميم تحريف للخلق الفاضل ، ورأوا أن التكرار كفيل بالتغيير ، وما على الجبان إلا أن يتشجع ويعمل أعمال الشجعان ، وما على البخيل إلا أن يتسخى ويعمل أعمال الأسخياء ، ليكتسب الخلق الجديد ، ويتخلى عن الخلق القديم .

فإذا كانوا قد جزموا بذلك فى الأخلاق غير متحفظين ولا مترددين فما أحرانا أن نجزم به فى اللغة ولا نتحفظ ولا نتردد .

وليس ما يتصيدونه من شبه مما يشفع لنا أن نترك الطريق الطبيعى لتعليم اللغة ونسلك طريقاً غير طبيعى فى تعليمها .

على أننا قد أخذنا بالحيطة والحزم ، فلم نمنع القواعد إلا فى الأقسام الأولية والابتدائية ، فجعلنا التعليم فيها بالحفظ والمحادثة فقط ، أما فى مرحلة التعليم الثانوى وفى مرحلة التعليم العالى فقد جمعنا بين الطريقين ، طريق القواعد وطريق الحفظ ، فإن لم يزدها قوة فليس يزيدها ضعفاً ، وهذا ربما يبين للناس بالتجربة صلاحية الطريقة الجديدة لتعليم اللغة ، فإذا بان صلاحها رفعنا القواعد إلا من التعليم العالى ومن المعاهد التى تعد معلم اللغة العربية .

إن ما يقال من الصعاب التى تعترض من يريد تكوين ملكة اللغة

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

العربية ، والتى تدفع بعض الناس إلى أن يظنوا أنها تجعل اكتساب هذه الملكة متعذراً ومحالاً إنما هو منبهة على مواضع العقاب فى تحصيلها ، وليس من المحال التغلب على شتى هذه العقاب والصعاب ، فلنتلاف منها ما يمكن ملافاته ، ولنبق للزمن ماعليه أن يتمه ، ومادمنا نبذل الجهد المضنى والزمن الكثير الذى هو رأس مالنا فى تعلم العربية فعلينا أن نزيل من معوقات هذه الملكة كل ما تمكن إزالته ، وإلا كنا نهدم باليسار ما نشيده باليمين .

علينا أن نجعل أغانينا باللغة العربية ولا نسمح للغة العامية أن تكون لغة الغناء ما دام ذلك يعوق ملكة العربية ونحن نبذل الجهد والمال فى اكتسابها ، ولا يصح أن نتناقض فى أفعالنا .

علينا أن نجعل روايات المسرح باللغة العربية ولا نسمح للعامية أن تحتل المسرح لأن ذلك يعوق ملكة العربية فينا ، ونحن قد ملأنا برامج تعليمنا باللغة العربية لنتعلمها ، ولا نحب أن نكون كذلك الممثل الذى ظهر على المسرح وبيده اليمنى أوراق ، وبيده اليسرى أوراق ، فقيل له ما بيدك اليمنى ؟ فقال قوانين . قيل له وما بيدك اليسرى ؟ قال نسخ هذه القوانين .

علينا أن نحتم أن تكون لغة المجلات هى اللغة العربية ، ولا نسمح للعامية أن تحتل مكاناً فيها للعلة نفسها ، وهكذا الشأن فى الإذاعة وفى الصحافة .

وإذا كنا إذا بنينا بناء وشيدناه ، وبذلنا المال فى تشييده ، لا نسمح

لغيرنا أن يهدمه ، فحرى بنا — ونحن نبنى ملكة اللغة العربية فينا ، وننفق فى سبيلها كرائم أموالنا ، وزهرة شبابنا ، وأعز جهودنا — ألا نسمح للمسارح ودور التمثيل والمغنين والمغنيات أن يهدموا ما نبنيه .

وعلينا أن نبكر فى تلقين التلاميذ نماذج من المحفوظات العربية . وقد سهلت مدارس رياض الأطفال علينا هذه المهمة ، فالتلاميذ يذهبون إليها فى سن مبكرة ، فعلينا أن نهتبل هذه الفرصة فنعطيهم نماذج يحفظونها تناسب عقولهم ، ولا تنبو عن أفهامهم ، ما دامت الملكة السابقة لها القوة والسيطرة والغلبة .

لقد غالى بعضهم وزعم أن تكوين ملكة العربية أسهل على الإنجليزى والفرنسى منها على من سبقت له ملكة العامية ، وذلك مبالغة فى اليأس والقنوط .

إن العامية لا يمكن أن تقف فى طريق تكوين ملكة العربية ، بل إنى أرى أنها عون على اللغة العربية ، فمن السهل على من عرف العامية أن يتعلم اللغة العربية وتكون عوناً له عليها ، وتطيعه ملكة اللغة العربية بأيسر وأسهل مما تطيع من لا يعرفها ولا يتكلم بها كالانجليزى والفرنسى ، لأن معرفة العامية تعلم الكثير من العربية ، فتعلم كثيراً من مفرداتها كالأرض والسماء والسحاب والماء والثرى والهواء ، وتعلم كثيراً من أساليبها وتراكيبها ؛ والنقص الذى دخل على ملكاته من تحريف العامية شىء سهل يمكن ملافاته إذا سار فى الطريق المستقيم ، عكس من لم يعرف شيئاً

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

من العامية ، فيبدأ فى تعلم العربية من جديد كلمة كلمة ، وحرفا حرفا ، وأسلوباً أسلوبا ، ونظماً نظما .

قد بلغنا فى نصرة الأسلوب الجديد فى تعليم اللغة العربية المبلغ الذى وسعه الجهد ، وإن كان قليلا ، وبلغه الوسع وإن كان ضئيلاً ، ولم نترك حجة نفيد نصرته إلا تتبعناها ، ولا شبهة تدل على خلافه إلا أفسدناها . ولم يبق للمهيمنين على تعليم اللغة العربية فى وزاة المعارف وفى الجامعة وفى الأزهر عذر فى ألا يصطنعوا هذا الأسلوب ؛ فقد وضح الحق ، وانخذل الباطل ، ولم يبق عذر لمعتذر .

تأييد رجال التربية

فى القديم والحديث

لما ندعو إليه من تعليم اللغة بالتكرار

وجوب تضافر الأدلة لنزع الباطل الموروث — الأسلوب الجديد هو أسلوب العصور الزاهرة لسلفنا — الكتاب لسيبويه يكون الملكة بما فيه من شواهد تزيد على الألف عداً ، ويعلم القوانين بما فيه من قواعد — اسم النحوى كان مرادفاً لاسم الأديب .

وكذلك كان الأمر فى تعليم البيان العربى — تحذير ابن الاثير من الاقتصار على القواعد وإيجابه اكتساب الذوق العربى بالمزاولة — قول ابن الكيت — قول الجاحظ ان عويص النحو لا يجدى فى المعاملات ولا يرغب فيه إلا من لا يحتاج إلى تعرف جسيمات الامور — قول عمار الكلبى — حدوث أسلوب القواعد فى العصور المظلمة — قول ابن خلدون — قول روسو وغوستاف لوبون وسبنسر — أساليب الامة فى الحياة عنوان عليها — الاخذ بالاسلوب المطابق لطبائع الاشياء ، إتقاء حكم الامم علينا .

لقد كان يكفينى ما قدمته من الأدلة على فساد الطريقة الرسمية فى تعليم اللغة العربية ، وعلى صحة الطريقة التى بينتها وأفضت الكلام فيها ، ولكنى أعلم أن المألوف شديد انتزاعه ، وأن النفوس تكره العدول عما وجدت

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

عليه الآباء والأجداد إلى شيء لم يكونوا عليه ، وربما خيل إليها أن السلف الماضين لم يؤثروا هذه الطريقة على ما عداها إلا لفضلها وكفايتها ، وأن العدول عنها إلى غيرها عدول عن الحق النافع إلى الباطل الضار ، ولو كان في هذا الجديد خير لسبق إليه الأولون .

وإني أريد أن أبين أن الطريقة التي ندعو إليها هي طريقة العصور الزاهرة لسلفنا الماضين ، وأنها لم تتغير إلى الطريقة التي نشكو منها إلا في عصور الضعف والتأخر العلمي ، وأريد أن أذكر من أقوال السلف ما يشهد بتفضيل هذه الطريقة على طريقة القواعد والقوانين لأونس القلوب بأن ما أدعو إليه ليس شيئاً أنا ابتدعته ، وإنما هو شيء كان يعلمه رجال العلم والتربية من آبائنا السابقين .

وأريد بعد ذلك أن أذكر بعض أقوال رجال التربية من علماء الغرب في هذا الموضوع ، لأبين أن العقل والدليل ورجال العلم في القديم ورجال التربية في الحديث وعلماء الشرق والغرب على أن اللغات إنما تكتسب بالتكرار والحفظ والتعهد والدربة وأن القواعد والقوانين لا تكسب ملكة اللغة .

أول كتاب وضع في نحو اللغة العربية وعكفت عليه الأجيال هو الكتاب لسيبويه ، وهو كتاب ملىء بالشواهد من كلام العرب ، شعرها ونثرها ، وكلام الله وكلام الرسول ، وأبياته تزيد على الألف ، وكان الدارس له يحفظ أبياته وشواهده ويدرس قواعده ، فيكتسب ملكة اللغة بما يحفظ من المنظوم والمنثور ، ويعلم قوانينها بما فيه من القواعد ، ولم يكن

النحوى هو من عرف القواعد فحسب ، بل كان النحوى هو من عرف القواعد ، وحفظ أشعار العرب ، وعلم تخريجها ، وحفظ أيامهم وخطبهم وحكمهم ومساجلاتهم ؛ ولذلك كان اسم النحوى مرادفاً لاسم الأديب ، وألف العلماء كتباً فى تراجم النحويين سميت باسم طبقات الأدباء ، كما فعل ابن الأنبارى فى كتابه نزهة الألباء فى طبقات الأدباء . وإذا قرأنا ترجمة من تراجم أساتذة النحو فى عصوره الأولى كالمبرد والكسائى والفراء وابن جنى ، بهرنا ما نرى من حفظهم وإتقانهم وإطلاعهم على شعر العرب والمحدثين واستيعابهم لغة العرب ، والملكة التى جاءتهم من مزاولة هذه اللغة ، فما من غريب إلا وهم به محيطون ، وما من شاهد أو مثل إلا وهم به عالمون ، وما من أسلوب إلا وهم عارفون بمعناه قادرون على تخريجه .

ولم يكن الأمر كذلك فى النحو فقط بل كان أيضاً فى البلاغة ، فأول كتاب ألف فى البيان العربى وصل إلينا هو البيان والتبيين لأبى عمرو عثمان بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، وهو كتاب حوى من الأشعار والخطب والأحاديث والأمثال والمساجلات ما هو كفيل بتربية ملكة البيان ، والكتب التى وضعت بعده كالبديع لابن المعتز ، ونقد الشعر لأبى الفرج قدامة ابن جعفر ، والصناعتين لأبى هلال العسكرى ، كلها كتب ملئت بالشواهد والأمثلة ، ومتنوع الأساليب ، وقد عنوا بذلك ولزموه وحافظوا عليه ثقة منهم بأن كسب ملكة البيان إنما تكون بحفظ الأساليب التى استكملت شروط البلاغة ، وابن الأثير فى كتابه المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر حذر دارس كتابه أن يقتصر على القواعد فى

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

فى الكتاب ، وأوجب عليه أن يكتسب الذوق الأدبي بالاطلاع على بيان العرب من منظوم ومنثور والاكثار من حفظه وممارسة أساليبه ؛ قال فى مقدمة كتابه : «ومع هذا فإنى أتيت بظاهر هذا العلم دون خافيه ، وحمت حول حماه ولم أقع فيه ، إذ الغرض إنما هو الحصول على تعليم الكلم التى بها تنظم العقود وترصع ، وتخلب العقول فتخدع ، وذلك شىء تحيل عليه الخواطر ، لا تنطق به الدفاتر . واعلم أيها الناظر فى كتابي أن مدار علم البيان على حكم الذوق السليم ، الذى هو أنفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذاً ، وإذا سألت عما ينتفع به فى فنه قيل لك هذا ، فان الدربة والادمان أجدى عليك نفعاً ، وأهدى بصراً وسمعاً ، وهما يريانك الخبر عياناً ، ويجعلان عسرك من القول إمكاناً ، وكل جارحة منك قلباً ولساناً ، فخذ من هذا الكتاب ما أعطاك ، واستنبط بادمانك ما أخطاك ، وما مثلى فيما مهدته لك من هذه الطريقة إلا كمن طبع سيفاً ووضعه فى يمينك لتقاتل به وليس عليه أن يخلق لك قلباً ؛ فان حمل النصال ، غير مباشرة القتال

وإنما يبلغ الانسان غايته ما كل ماشية بالرحل شملال

وكان كلما أفرط القوم فى درس القواعد والتعمق فيها ظهرت آراء تدعو إلى القصد فى درسها والاقتصار منها على ما أقام الألسن . قال ابن السكيت : خذ من الأدب ما يعلق بالقلوب ، وتشتهيه الآذان ، وخذ من النحو ما تقيم به الكلام ، ودع الغوامض ، وخذ من الشعر ما يشتمل على لطيف

المعانى ، واستكثر من أخبار الناس وأقاويلهم وأحاديثهم ولا تولعن بالغث منها .

وقال الجاحظ فى رسائله : « فصل فى رياضة الصبي ، وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام فى كتاب إن كتبه ، وشعر إن أنشده ، وشيء إن وصفه ، وما زار على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ، ومذهل عما هو أرد عليه منه ، من رواية المثل الشاهد ، والخبر الصادق ، والتعبير البارع . وإنما يرغب فى بلوغ غايته ، ومجاوزة الاقتصاد فيه ، من لا يحتاج إلى تعرف جسيمات الأمور ، والاستنباط لغوامض التدبير لمصالح العباد والبلاد ، والعلم بالقطب الذى تدور عليه الرحى ، ومن ليس له حظ غيره ، ولا معاش سواه . وعويص النحو لا يجدى فى المعاملات ، ولا يضطر إليه فى شيء » .

وقد وجد شعور منذ زمن طويل بتفضيل تعلم اللغة بالملكة على تعلمها بالقواعد . عيب على عمار الكابى بيت من شعره فامتعض وأنشد أبياتاً من منها .

كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم وبين قوم على إعرابهم طبعوا ؟

فهذا الشاعر قد فاضل بين الطريقتين ، وفضل الطريقة العملية على الطريقة العلمية التقريرية .

وكان الناس يأخذون ألسنتهم بالإعراب ، ويلتزمون العربية فى كلامهم ، وكانوا يعيبون من يلحن ويحفظونه عليه ويتحدثون به . ومازال الأمر كذلك فى النحو والبلاغة حتى نبتت فى العصور المظلمة تلك الحماقة

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

التى تقدس القواعد وتجعلها كل شىء فى تعليم اللغة وتربية ملكتها ؛ وأعطتها قوة العصا السحرية ، فما هو إلا أن يضرب المرء بها حتى يستحوذ على لغة العرب ، فيكتب بها ويخطب ويساجل وينظم الشعر ، فأكثروا من القواعد وأقلوا من عرض المثل والشواهد والأساليب ، وورثنا نحن عنهم هذه الطريقة وسرنا عليها حتى الآن .

ورجال التربية فى القديم والحديث والشرق والغرب طالما دعوا إلى تعليم اللغات بالحفظ والتكرار والمرانة والدربة ، وبينوا أن القواعد والقوانين لا تعلم اللغة ولا تكون ملكتها ، وطالما نددوا بهذه الطريقة التقليدية ، وبهذا الأسلوب العقيم فى تعليم اللغة ؛ فابن خلدون الفيلسوف الاجتماعى م ٨٠٨ هـ بين فى مقدمته أن اللغة ملكة ، وأن الملكات لا تكتسب بالقواعد ؛ وإنما تكتسب بالحفظ والتكرار . قال فى فصل عنوانه « أن اللغة ملكة صناعية » : اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة ؛ إذ هى ملكات فى اللسان للعبارة عن المعانى ... (والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال ، لأن الفعل يقع أولا ، وتعود منه للذات صفة ، ثم تتكرر فتكون حالا ، ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة ، أى صفة راسخة) ، ثم بين أن ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها فى التعليم . وكان حرياً بأهل القرن الثامن وما تلاه من قرون أن ينتفعوا بآرائه وبما بسطه هذا العالم المجدد ودعا إليه من آراء فى التربية ، ولكن ابن خلدون رجل سبق عصره فلم تنتفع به أمم الشرق ، ومن المؤلم أننا فى عصرنا الحديث لم نفك قيود

التقليد ، وننفض عنا غبار الكسل ، ونحرر أنفسنا من هذه الطريقة التى تلاحقنا نتائجها إخفاقاً بعد إخفاق ، وخيبة إثر خيبة .

هذا حديث الشرق وحديث الغرب أعجب ، فما من كاتب كتب فى التربية إلا وأنحى على طريقة القواعد ، ورأى أن اللغة لا تعلم إلا بالحفظ والمحادثة ؛ فروسو رجل الفكر الفرنسى فى القرن الثامن عشر نبه فى صراحة على أن اللغات يجب أن تعلم بواسطة المحادثات لا بواسطة الصرف والنحو . والدكتور غوستاف لوبون المفكر الفرنسى ذكر فى كتابه روح التربية أن الأمم الراقية لا تأخذ التلاميذ فى تعليم اللغات بكتب النحو وإنما تأخذهم بالكلام المألوف . ثم قال : وهذه الطريقة لا تحرم التلاميذ درس النحو . فهو يدرس النحو أحسن درس بهذه الطريقة اللاشعورية التى تحول النحو إلى ملكة راسخة لا إلى تكلف وتعمل ...

ودعا سبنسر الفيلسوف الإنجليزى فى كتاب التربية إلى تعليم اللغات بأسلوب أشبه بسنن الطبيعة التى يتعلم بها الطفل لغته الأصلية بلا معين ولا مرشد فيضمحل التعليم بواسطة القواعد ويعتاض عن ذلك بطرق ناجعة ، وذلك ما أفضى إلى تأجيل تعليم علوم النحو والصرف والبلاغة للطلاب . واستأنس فى ذلك برأى المسيو مارسيل الذى ذهب فيه إلى أن علوم النحو والصرف والبلاغة ليست مما يبتدأ به فى تعليم الأطفال ، ولكنها متممات ومكملات . ثم قال سبنسر : وقصارى القول أنه لما كانت علوم النحو والصرف والبلاغة إنما نشأت بعد تكون اللغة كان من الواجب

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

أن يتلقاها التلميذ بعد تكون اللغة . وسوى هؤلاء كثير من رجال التربية فى العصر الحديث .

إن أساليب التعليم والتربية التى تسير عليها أمة من الأمم هى خير مقياس لعقليتها وثقافتها ومقدار نضوجها ، فإن كانت تجرى على قوانين العقل والوجود وتساير الرقى الإنسانى العام ، وتلائم روح طبائع الأشياء ، استدللت بذلك على ثقافتها ورقيها ؛ وإن كانت تخالف ذلك أمكنك أن تحكم على الأمة بالتأخر فى مضمار الحياة . وبالضعف فى شتى مناحيها العقلية والاجتماعية والسياسية ، وإن الأمم الرابضة حولنا ، والمتطلعة إلينا ، والتى تخالطنا وتجاورنا لتحكم علينا بما نصطنعه من أساليب فى التربية والتعليم ؛ فلنأخذ بالأسلوب المطابق لطبائع الأشياء وقوانين الوجود فى تعليم اللغة العربية ، إن لم يكن لإتقان اللغة والتوفيق فى تعليمها ، فلاتقاء حكم الأمم علينا بالتأخر فى مضمار الحياة .

الآمـــال التى ندركها

من هذا الأسلوب

كيف يتغير نظرنا إذا آمنا بهذا الأسلوب — موازنة بين آراء أصحاب الأسلوبين — إنه يرجى مع مرور الزمن أن تصير اللغة العربية لغـة رجل الشارع — وهذا يؤدى إلى جعل العلوم مشاعة فى الأمة لا طائفية — توفير جهدنا إلى فهم علوم الحياة — هذا الاصلاح اللغوى إذن إصلاح اجتماعى — الأمم الراقية تسير من سىء إلى حسن ومن حسن إلى أحسن الأمم الوانية لا تغير — مثل لما تغير فى الغرب — تقليدنا الغرب فى الأساليب المادية — نحن أحوج إلى التغيير في أساليب التربية والعلم — حث على السير والتقدم .

لو اقتنع الناس بما ذهبا إليه فى تعليم اللغة العربية لتغيرت جهات نظرهم فى التعليم وأصبحت لهم آراء غير آرائهم ، ونظرات غير نظراتهم فإذا فاضلوا مثلا بين أثر الصحف وأثر المدارس فى تعليم العربية ، فضلوا أثر الصحف على أثر المدارس ، ذلك لأن الصحف بذيوعها وانتشارها

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

وقراءة الكثير لها تعمل على تربية ملكة العربية بالقراءة والدربة ، وهى ليست تعمل على ذلك فى عدد محدود كطلاب المدارس بل فى جميع القارئين فى الأمة ، وهى ليست تعمل على ذلك فى زمن محدود بل فيما شاء الله من ليل أو نهار ، فهى أجدى أثراً ، وأعم نفعاً ، وإذا كان كثير من القارئين يفهم الحديث بالعربية فذلك بفضل الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية لأنه يقرؤها ويستقى منها الأخبار ، ويعلم منها أخبار دولته ، وأخبار الدول الأخرى ، وفى أثناء ذلك يتعلم العربية ويعتاد فهمها والحديث بها . أما المدارس فأثرها فى ذلك قليل ، يقدر بقدر ما فيها من مطالعة ومحفوظات ، وبقدر ما فيها من متعلمين :

أما الذين لا يؤمنون إلا بالقواعد فلا يرون للصحف والمجلات فضلا فى تعليم العربية لأنها ليست تعطيهم قواعد ، ولا تعلمهم قوانين وإنما الفضل كل الفضل للمدارس التى تعلمهم إياها ، لأنهم لا يؤمنون إلا بها .

وإذا رأوا اثنين أحدهما يتكلم العربية صحيحاً ويقرؤها صحيحاً ويكتب بها صحيحاً وهو يجهل القواعد ، أو يعلم القواعد ويتقنها ولكنه لا يحسن الكلام بها ولا الكتابة ، حكموا بأن الأول أعظم إتقاناً للعربية وامتلاكا لها من الثانى ، كما يحكم لمن يعمل أعمال السباحة بأنه سابح ماهر دون من يصفها ويبين قوانينها ولا يعرف عملها .

ولو قدر الله لمصر وللأقطار العربية الشقيقة أن نأخذ بهذا الإصلاح وأن تسير فى تعليم العربية على هذا الأسلوب لأفادت من وراء ذلك أعظم فائدة ولاستطاعت أن تصل إلى النتائج الآتية :

١ — أن تدرك البلاد ما تنشده من تعلم العربية تعلماً يجعلها ملكة مذللة القياد لخدمتها فيستطيع كل شاب أن يتكلم ويخطب ويحاضر ويكتب بها دون ضعف ولا التواء بأيسر ما يكون من الزمن وبأقل ما يكون من المشقة .

٢ — أنه يرجى مع مرور الزمن أن تصير العربية ملكة لجزء عظيم من الأمة يتكلمون بها ويتفاهمون فتصبح لغة البلاد وتغزو العامية وتحتل مكانها وهذا غنم عظيم يؤدى إلى أعظم النتائج .

٣ — ومن أهم نتائجه أن تصبح لغة الكتابة لغة التحادث فى الشعب فيسهل عليه فهم مايقرأ ، فكما لايجد المرء فى فهم الخطاب عسراً ولا مقشة لا يجد كذلك فى فهم الكتاب عسراً ولا عناء ، فيسهل العلم على راغبيه وييسر للأمة على السواء ويتبدل الحال غير الحال ، فلا نظل على حالتنا الراهنة التى تخالف فيها لغة الكتابة لغة التخاطب ، مما أدى إلى ألا يفهم جمهور الأمة لغة الكتابة لأنها غير لغته التى يتكلم بها ، وأنى له أن يحصل العلم ما دام مكتوباً بلغة لا يفهمها فيكون العلم طائفياً خاصاً بطائفة مخصوصة لا يشيع ولا يذيع بين جميع طبقات الأمة .

٤ — وكذلك من أهم نتائجه أن تساير حياتنا طبيعة الأشياء ، وتكون أقرب إلى الطبيعة فنتعلم اللغة بأقل وقت وأيسر جهد ، ونفرغ إلى علوم الكون ، والوقت والجهد اللذان ننفقهما فى تعلم كيف نتكلم ننفقهما فى تعلم علوم الحياة حتى لا يسبقنا غيرنا إلى معرفة هذا الكون الذى نعيش فيه ومعرفة أسراره ، وحتى لا نتأخر عن قافلة الحياة البشرية

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

السائرة فى طريق المجد والقوة . نحن الآن ننفق نصف عمرنا لنتعلم كيف نتكلم ثم ننفق ما بقى فى تعلم علوم الحياة فلا بد أن يسبقنا هؤلاء الذين انفقوا أعمارهم فى علم علوم الحياة وفى العمل لها ، ولابد أن نقصر فى مجاراة هذه الأمم فى ميدان العلم والثقافة وفى نواحى النشاط الحيوى الأخرى .

هذه أهم النتائج التى تترتب على هذا الاصلاح وذلك التجديد فى أسلوب دراسة اللغة العربية .

أرأيتم كيف أن الإصلاح الذى ندعو اليه عظيم الخطر ، محمود العاقبة جليل الغاية ، وله ما بعده من نتائج نافعه مثمرة .

إنه من جهة يقرب هـذا البعيد الذى جرينا إليه ولم ندركه وجرت الأجيال قبلنا إليه ولم تدركه ، وهو من جهة أخرى يوفر فى جهودنا وفى أعمارنا ويدخرها لنشاطنا الحيوى فى سبل الحياة ، وفى فهم علوم الـكون وأسراره ، وهذا كسب ليس بالقليل ، فإننى أعتقد أنه لا فرق بين الشرق والغرب ، إلا أن الشرق بذل جهوده جلها فى معرفة اللغة ومعرفة أسرارها ، والغرب بذل جهده جله فى فهم أسرار الـكون وسننه وقوانينه .

وهو من جهة ثالثة يبيح ذخائر اللغة العربية وأخلاقها لطبقات الأمة المتعلمة ، ويعطيهم المفتاح الذى يفتحون به كنوزها الثمينة ، ذاك لأن اللغة العربية دونت بها علوم وآداب ودين وأخلاق وفنون ، وما لدينا من ذلك هو محصول ثلاثة عشر قرناً ، وليس ذلك منتوج العرب وحدهم ، بل هو منتوج العرب والأمة اليونانية فى أزهى عصورها والأمة الفارسية والأمة

الهندية ؛ فقد ترجمت إلى اللغة العربية علوم اليونان وآدابهم وأخلاقهم وعلوم الفرس والهند وآدابهم وحكمتهم فى العصر العباسى ، وضم ذلك إلى ذخائر اللغة العربية ، وصار مسهلاً لمن يعرفونها أن يطلعوا على علوم العرب واليونان والفرس وآدابهم وأخلاقهم .

وقد كانت طبقات الأمة كلها محرومة من هذه الكنوز إلا فئة قليلة ممن توفروا على دراسة العربية واكتساب ملكة الفهم بها ، وكان يصح أن يقال ، بالنظر إلى الكثرة المطلقة فى الأمة ، إنها أمة تعيش بدون علوم وبدون مثل عليا ، وبدون فنون وآداب ، إذ هم ليسوا يفهمون إلا العامية والعامية لم يكتب بها علم ولا فن ولا أدب ، ولم يكتب بها إلا بعض قصص لا توجه أمة إلى مثل عليا ، ولا تغنى فى الحياة فتيلا ، فإذا أخذ بهذا المنهاج الجديد ، وتربت ملكة العربية فى نفوس الطبقة المتعلمة ، وانتقلت ملكتها إلى معاشريهم وخلطائهم بالمحادثة والمخالطة . فقد وضعنا كنوز العربية بأيدى الأمة المصرية ، تأخذ منها حين تشاء وحيث تريد ، ونقلناها من أمة لا علوم لها ولا حضارة ، إلى أمة ذات علوم وأخلاق وفن وآداب وحضارة .

لقد وقفنا وطال بنا الوقوف ، وسكتنا وطال بنا السكون ، والعالم فى سير وتقدم وحركة ، والوقت لا يسمح بعد بالانتظار .

إن فى الأمم المتقدمة ظاهرة ، وهى أنهم دائماً يعملون عقولهم فيما ورثوه وفيما هم عليه ، فيصلحون منه ، ويغيرون فيه ، فإذا الفاسد صالح ،

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO LIBRARY

والضعيف قوى ، والراكد جار ، وإذا حركة التجديد والنشاط تشملهم جميعاً وتعمهم .

وإن فى الأمم المتأخرة ظاهرة تناقضها ، وهى أنهم لا يحاولون إصلاحاً ولا يحاولون تقدماً ، والميراث الذى ورثوه من آبائهم لا يحسنون منه ، ولا يجملون فيه ، ويتركونه لأبنائهم كما كان أو أسوأ مما كان .

أنظروا إلى أمم الغرب فإن الإصلاح شمل عندهم كل شىء ، من شؤونهم المادية والمعنوية ، شمل آلات الحرب والقتال ، فبعد أن كانت السيف والرمح ، أصبحت المدفع والدبابة والطائرة والغواصة والمدمرة ، وشمل أدوات السفر ، فبعد أن كانت الخيول والجمال والمراكب الشراعية أصبحت القطارات والبواخر ، وشمل البريد فبعد أن كان يحمل على البغال والجياد والحمام الزاجل ، أصبح يطير بالبرق واللاسلكي ، وشمل أدوات الاضاءة فبعد أن كانت الشموع والقناديل ، أصبحت المصابيح والثريات الكهربائية . ومثل هذا التغيير والتجديد كان فى العلم وأساليب التربية والتعليم وقد أخذنا عنهم الأساليب المادية وجددنا فيها كما جددوا ، ولم نأخذ عنهم الأساليب العلمية ، ونجدد فيها كما جددوا ، ونصلح فيها كما أصلحوا ، ويظهر أننا إلى التجديد فى العلم وأساليب التعليم أحوج منا إلى التجديد فى وسائل العيش المادية .

علينا أن نقوى ملكة النقد فينا ، وأن ننفض غبار الكسل عنا ، وأن نفكر وننقد ونبتكر ، وألا ننظر إلى الأشياء التى بين أيدينا على أنها قد بلغت ذروة الكمال ، بل ننظر إليها على أنها عمل إنسانى محتمل

للنقص قابل للكمال ، وإن مهمة السلف فيما ورثوه عن الخلف أن يكملوا نقصه ويصلحوا فاسده ، وإن يؤدوه إلى من بعدهم خيراً مما كان .

علينا أن نسرع فى ذلك لأننا أطلنا الوقوف ، حتى أن رجلاً محافظاً مثلى ضج من هذا الوقوف ، ونادى بوجوب السير والتقدم والاسراع .

يا ناق سيرى فقد أفنت أناتك بى
عمرى وصبرى وأحلاسى وانساعى

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

القواعـــد

لست أبغض القواعد ولا أزرى عليها ، بل أنا أحبها وأجلها وأعلم لها مكانتها .

أعلم أنها حفظت اللغة العربية طوال هذه القرون ، وأعلم أنها حكم فاصل إذا خانت المرء ملكته اللغوية يستشيرها فتحكم بالصواب ، وهى حصن حصين لجأت اليه اللغة فحماها من التغير والاندثار ، ولولاها لبادت كما بادت اللغات الأخرى ، والقواعد فوق ذلك تهدينا إلى وجوه الحكمة فى هذه اللغة الشريفة وتقوى عقولنا بما تهدى اليه من تعليل .

هذا ما لا ننكره على القواعد إنما الذى ننكره عليها أن يكون بها كسب ملكة اللغة العربية وقد أبان الدليل أنها لا تكسب إلا بالحفظ والمرانة والتكرار .

وعليه فانى أحض على درس القواعد للأغراض التى قدمتها وأتمنى أن يكون لها فى نفوس أبنائنا التلاميذ محبة وإيثار وأن يكون لها لهذه المحبة وهذا الأيثار سبيل إلى عقولهم — أتمنى أن تحبب اليهم ، وتستهوى أفئدتهم ، وتستأثر بعقولهم فيجدوا لدرسها لذة ومتعة ، ويفقهوا أسرارها ، ويدركوا أغوارها ، ويعلموها علما قويا متينا ، ولكنى أجد أبناءنا التلاميذ يبغضونها أشد البغض ، ويجدون فى درسها ألما يحز فى نفوسهم ، ويضيقون

بتحصيلها وفهمها ذرعاً ، يتخرج التلاميذ وهم لايحفظون منها إلا القليل ، ولا يحسنون من هذا القليل إلا الأقل ، ولقد هالنى هذا الانصراف عن القواعد ، وهذا الجهل بها فبحثت عن أسبابه وعلله فوجدتها ترجع إلى أسباب ثلاث .

أولها — أنها درست لتلاميذ القسم الابتدائى وهم صغار لاتناسب عقولهم إذ أنها فلسفة للغة وعقولهم ناشئة لا يناسبها هذا التعمق ولا هذا الغوص فدرسوها دون أن يجدوا لها لذة فلم يفهموها ولم يدركوا سرها ووجدوا أنفسهم مجبرين على قراءتها والإنصات إلى دروسها وحبس أعضائهم عن النشاط والحركة للاستماع إلى ما لا يفهمون فأبغضوها ووجدوا لدرسها ضيقاً وحرجا ، وعلق بنفوسهم كرهها ، فلما كبروا وتفتحت أذهانهم وكان فيها قدرة على استكناهها بقى معهم هذا البغض لدرسها وكانت عقدة نفسية بغض لما لا سبب لبغضه الآن لأنه كان بغيضاً اليهم من قبل لعدم فهمه وتذوقه وإكراههم عليه ، والعقل إنما يفهم الشىء ويعلمه بقدر حبه إياه وإقباله عليه فلم يفقهوها كباراً كما لم يفقهوها صغاراً .

ويضم إلى ذلك أن القواعد إنما رتبت فى سنى الدراسة ترتيباً تصاعدياً ورتبت كل مرحلة على التى قبلها ، فإذا لم يفهم التلميذ ماقبلها صعب عليه إدراك ما بعدها .

فإذا استعصى عليهم أن يفهموا القواعد فى سن الصغر لأنها لا تناسب عقولهم لم يفهموها فى سن الكبر لأنهم يتلقون ماعلمه متوقف على علم ماقبله .

وهذا يفرض علينا ألا نعلم القواعد فى هذه المرحلة من السن

ثانيها — أن المؤلفين المتأخرين مسخوا القواعد وشوهوها فألقوها إلى المتعلمين خالية من عللها وأسبابها وحكمها ؛ القوها جافة لاروح فيها ولا حياة ، وعلموها التلاميذ قواعد لاروابط بينها ؛ ولا يدرى لماذا كان هذا الحكم ، ولماذا اختير هذا الوضع ، فكرهوا دروس القواعد لذلك

وإن المؤلفين المتأخرين فعلوا ذلك طلباً للاختصار واستعجالا للفائدة لأنهم رأوا أن المطلوب هو القواعد ليجرى عليها ؛ وما عدا ذلك فضل ومشغلة .

وما دروا أن هذا الفضل هو الذى يثبت القاعدة ، وهو الذى يسيغها ويجعل الذهن قابلا لها والنفس مشوقة اليها .

وهذا يفرض علينا أن نبدأ بالتأليف من جديد فنذكر علل القواعد وأسبابها ، ونذكر الفروق بين الأحكام ولماذا اختلفت أو تماثلت ويجب أن نتحرى فى التعليل لئلا نقع فيما وقع فيه من سبقونا من الخيال والجرى وراء الأوهام وذكر علل يعلم العقل بطلانها وأنها لم تدر بخلد واضعى اللغة أو المتكلمين بها .

ثالثها — أن العصور الأسلامية التى تقدمتنا اختلفت عليها حالتان من القوة والضعف والخصب والجدب ، فكانت العصور الأسلامية الأولى عصور قوة وعزة ، أخصبت فيها العقول ، وطمحت فيها النفوس ، فأنتجت خير إنتاج واستغلت أعظم استغلال ، وكانت العصور المتأخرة عصور ضعف واضمحلال ، أجدبت فيها العقول ولم تعط ملكة الاستنباط وورثت عن سلفها ميراثا علميا عظيما فتصرفت فيه بالاختصار والفهم

والتأويل ، ودخلت هذه العلوم فى أذهانهم وخرجت فيها بعض المسخ والتشويه ، وبعض التبديل والتحريف .

ونحن اعتمدنا فى ثقافتنا على هذه الكتب المتأخرة وعلى الكتب المستحدثة التى أخذت منها ، واعتمد مؤلفوها عليها .

ومن الواجب أن يدرس المنقطعون لدراسة العربية هذه القواعد دراسة تاريخية فتدرس القاعدة فى عصورها المختلفة ، وتساير فى سنيها المتعاقبة ، ويعلم ماوقع عليها من تحريف وتغيير ، ثم تخلص القاعدة مما شوهها ومسخها ؛ وتبرز فى أحسن صورها وخير معارضها .

يجب أن نعطى أنفسنا حق الإصلاح والتبديل ، وحق الابتكار والتجديد فما حسن أن نبقى على قواعد مشوهة وعلوم ممسوخة مبدلة .

ويجب أن نعطى أنفسنا حق الحكم حتى على منتجات العصور الزاهية فهذه سنة الوجود ، يضع الواضع ، ويبتكر المبتكر وبحسبه أن يكون قد هدى إلى القاعدة من العلم ، ويأتى من بعده ليزيد فيما وضع ، ويصلح ما ابتكر ، وبهذا تنمو العلوم ، وتعظم الفنون .

ولا يعيب المتقدمين ولا يغض من شأنهم أنهم فاتهم شىء وأدركه المتأخر . فالانسان موكل به النسيان ولم يخلق معصوما من الخطأ مبرءا من الزلل إنما العيب علينا إذا بقينا نعتقد فيهم العصمة وفى عقولنا الضعف فنعطيهم حق التأليف والابتكار ولا نعطى أنفسنا حق النقد والتمحيص ونرى أننا أقل شأنا منهم وأصغر من أن نجرى لهم فى مضمار أو نزاحمهم فى سباق ، أرانى قد قلت مالم يؤلف ، وذكرت مالم يعتد ، فمن علوم

مسخت ، وقواعد حرفت ذكرها المتقدمون صحيحة ، وحرفها المتأخرون ومن علوم وضعها المتقدمون وبقيت على ما هى عليه ولكنها لا تصبر على محك النقد ، وإذا نقدت ظهر زيفها ، ومن قواعد جردت من عللها وأسبابها ، فأصبحت جافة لا تقبل ولا تساغ .

وأرى أنه لا يصح أن يترك ذلك لا يمثل له ولا يؤتى بشاهد عليه فمن الواجب أن يذكر لذلك بعض الأمثلة والشواهد وإلا كان إسرافا فى القول ودعوى لا يقوم عليها شاهد ولا دليل وإلى القارئ بعض الأمثلة لعلها تصلح شاهداً لما قدمناه فى كتاب النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة ما يغنينا عن ذكر أمثلة من النحو فلنعمد إلى ذكر أمثلة من علوم العربية الأخرى وهى علوم البلاغة الثلاثة المعانى والبيان والبديع .

أولا — إنى لأعجب لهؤلاء الكاتبين فى البلاغة من المتأخرين يعمدون إلى أسباب الحسن فى الكلام التى هدى إليها المتقدمون فيعللونها بغير عللها النفسية ويسوون بينها وبين غيرها حتى يصرفوا الذوق عن الإحساس بها وعن تذوقها ، كأنهم قد تواصوا فيما بينهم على أن يفسدوا هذا العلم إفساداً حتى لا يبقوا فيه شيئاً صحيحاً .

هدى المتقدمون كعبد القاهر إلى أنه قد يوجد شىء فى النظم فيكسب الكلام حسناً وجمالا . كالحذف فإنك تحس من الكلام المحذوف منه بعض أجزائه فى بعض الحالات جمالا لا يكون إذا أنت ذكرت المحذوف ومثل لذلك بقوله :

قالت سمية قد غويت بأن رأت ... حقاً تناوب ما لنا ووفودا
غى لعمرك لا أزال أعوده ... ما دام مال عندنا موجودا

وقوله :

تقاعب حتى قلت داسع نفسه وأخرج أنياباً له كالمعاول

وقوله :

غضبى ولا والله يا أهلها لا أطعم البارد أو ترضنى

وقوله :

وعلمت أني يوم ذاك منازل كعباً ونهدا
قوم إذا لبسوا الحديد تنمروا حلقاً وقدا

وقال عبد القاهر هذا باب يشبه السحر ، لأنك تراك أنطق ماتكون إذا لم تنطق وأشد ما تكون بياناً إذا لم تبن ، إلا أن عبد القاهر بين أن فى الحذف حسنا ولم يبين سبب هذا الحسن وعلته ، واكتفى بأن يعرض علينا الشيء الجميل ويضع أيدينا على موضع الجمال فيه وهو الحذف وبين أننا لو ذكرنا المحذوف لما كان للكلام ذلك الحسن فأما العلة فى ذلك فلم يذكرها ونحن إذا رجعنا إلى نفوسنا نجد أن العلة فى حسن الحذف فى هذه المواضع أمور نفسية وهى أن المحذوف تدل عليه قرائنه فاذا ذكر كان ثقيلا موضعه لأنه تعريف لما عرف وبيان لما بين وإذا حذف رفعت المؤنة عن السامع بذكره ورفعت الكلفة التى تكرن عليه عند ما يسمع حديثاً معاداً أو كلمة لم يجد فيها فائدة جديدة . وبالجملة فالكلمة الخاليه من الفائدة كالثقيل تقذى العين بوجوده فاذا لم تبصره فى موضع كان يتوقع وجوده فيه وجدت لذلك من الأنس والمحبة ما يغمر القلب سروراً وإذا أردت أن تتبين شيئاً شبيهاً بذلك فاستمع إلى رجلين أحدهما يطيل فى

الكلام ويذكر ما لست بحاجة إلى ذكره ويطيل فى غير طائل والثانى يهجم بك على الفائدة من أقصر طريق وكلما سار بك جدد لك فائدة .

فانك تجد للأول ثقلا على القلب وضيقا فى النفس وتجد للثانى خفة وتجديد سرور ولذة . وشيء آخر وهو الهجوم بالسامع على المطلوب دفعه فإن مطلوبه فى مثل :

قال لى كيف أنت؟ قلت عليل سهر دائم وحزن طويل

معرفة حاله فإذا قال عليل — فقد هجم به على المطلوب وكفاه مؤونة الانتظار .

هذا ما نجده فى نفوسنا عندما نسر لحذف كلمة ونبحث عن علة هذا السرور وهذا الارتياح .

وشيء آخر هذه الجدة التى تراها فى هذا الأسلوب فأن الناس قد اعتادوا الأسلوب الذى لم يحذف منه شيء لكثرة دورانه فى الكلام ولم يعتادوا الأسلوب الذى حذف منه أحد جزأى الأسناد لقلة دورانه فى ألسنتهم فاذا سمعوا الكلام المحذوف منه شيء سمعوا الجديد الذى لم يألفوه ، والبدع الذى لم يعتادوه فاستمتعوا منه بما يستمتعون من الجديد المبتدع ، والغريب المبتكر ، وليست هذه الجدة فى السمع فحسب بل هى جدة فى الفكر فقد كنت تتلقى المعانى من الألفاظ فصرت تتلقاها من العقل يدل عليها ، ويشير اليها ، وإن ذلك ليروعك ويؤثر عليك وإن كنت لاتدرى مأتاه ولا مصدره .

جاء السكاكى والخطيب ومن بعدهما وأبوا أن يكون للحذف مزية على الذكر وجعلوا الحذف فى موضعه كالذكر فى موضعه وجعلوهما حالين

من أحوال اللفظ العربى التى بها يطابق اللفظ مقتضى الحال فيحصلان البلاغة ثم ذهبوا يبحثون عن المقامات التى تقتضى الذكر أو الحذف فقالوا أما حذف المسند إليه فللاحتراز عن العبث بناء على الظاهر أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من اللفظ أو العقل أو اختبار تنبه السامع أو مقدار تنبهه أو صونه عن لسانك أو صون لسانك عنه أو تأتى الأفكار عند الحاجة أو ادعاء تعينه وجعلوا الذكر مقاما وهو أنه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه أو الاحتياط لضعف التعويل على القرينة أو التنبيه على غباوة السامع أو زيادة الإيضاح والتقرير أو إظهار تعظيمه أو إهانته أو التبرك بذكره أو استلذاذه أو بسط الكلام حيث الأصغاء مطلوب .

فانت تراهم سووا بين الذكر والحذف عند المقتضى وقد كان يفهم من كلام عبد القاهر . أن للحذف مزية لاتكون لغيرها ، ولو مشينا على مامشى عليه عبد القاهر لعلمنا اختصاص الحذف بهذه المزية ، ودعانا ذلك إلى مراعاة الحذف فى أساليبنا ماوجدنا إلى ذلك سبيلا .

وتراهم قد ذهبوا عن العلل الحقيقية لجمال الحذف وهى ماذكرناها إلى العلل التى ذكروها ، وبعض هذه العلل صناعية لاتخطر إلا ببال الذين توغلوا في صناعة العلوم العقلية كتخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ ، وبعضها لايخطر للبليغ المتكلم ولا للسامع ببال . أما العلل التى ذكرناها فهى علل نفسية قد يشعر المرء بآثارها ولا يدركها ولكن الفلسفى العارف بخفايا النفوس يدركها ويؤمن بها .

ولقد رغبت أن أحمل كلامهم ماذكرته من المعانى فقد قالوا (وأما حذفه

فللاحتراز عن العبث بناء على الظاهر أو تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ) فقلت قد قالوا الاحتراز عن العبث وهـذا يؤدى إلى الاستثقال والحذف يؤدى إلى رفع هذا الاستثقال ، وقد لحظوا فى قولهم تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقـل واللفظ أن الدلالة على المحذوف عقلية .

ولـكننى رأيتهم يرعون فى غير هذا الجانب فقد قال صاحب المطول فى شرح ذلك (فللاحتراز عن العبث ، إذ القرينة دالة عليه فذكره عبث لـكن لا بناء على الحقيقة في نفس الأمر بل (بناء على الظاهر) والا فهو فى الحقيقة الركن الأعظم من الـكلام فـكيف يكون ذكره عبثا ، وقيل معناه أنه عبث نظرا إلى ظاهر القرينة وأما فى الحقيقة . فيجوز أن يتعلق به عرض مثل التبرك والاستلذاذ والتنبيه على غباوة السامع ونحو ذلك

ثانياً — لى من فلان صديق حميم ، لأن سألت فلانا لتسألن به البحر ، لأن لقيت فلانا لتلقين به الأسد .

هذه أمثلة فيها جمال وبلاغة ويحس المرء بطرب لايجده إذا قال فلان صديق الحميم أو فلان كالأسد أو كالبحر — وقد أحس علماء البلاغة هذا الجمال فذهبوا يحدونه ويميزونه ويعرفون أسبابه وأخيراً سموا هذا النوع الذى أحدث ذلك الجمال التجريد وقالوا فى تعريفه ما يأتى : — التجريد أن ينتزع من أمر ذى صفة أمر آخر مثله فيها مبالغة لكمالها فيه — فقولنا لى من فلان صديق حميم يؤخذ منه أن فلانا بلغ من الصداقة حداً صح معه أن ينتزع منـه آخر مثله فى الصداقة ، وكذلك لأن لقيته

لتلقين به الأسد يؤخذ منه أنه بلغ من الشجاعة حداً يصلح معه أن ينتزع منه أسد مثله فى الشجاعة وذلك لكمال الشجاعة فيه .

وكذلك لئن لقيته لتلقين به البحر يفيد أنه بلغ من الكرم حداً صح معه أن ينتزع منه بحر مثله فى الكرم وذلك لكماله فى الكرم .

وهذا تصور غريب لهذه الأمثلة التى فيها هذا النوع من البلاغة فلم تجر عادة أن المرء إذا بلغ حداً من الكرم صح أن ينتزع منه بحر مثله فى الكرم وذلك لكماله فيه وليت شعرى ما هذا الانتزاع أهو بطريق الولادة أم بطريق آخر كانتزاع الصخر من الجبل أم كانتزاع الثوب من اللابس ؟

هذه الحالة لاتدل على كرم ولا على مبالغة فيه فما عهد أن الكريم إذا بلغ فى الكرم المبلغ العظيم إنتزع منه بحر يساويه فى الكرم .

وإن فهم هذه الأمثلة على هذا الوجه يضيع بلاغتها ويفسد معناها ويجعله تصوراً كتصور البله والمرورين ، كريم يلد بحراً أو شجاع يشتق منه أسد وصديق ينتزع منه صديق .

وقد كنا نفهم من هذه الأمثلة قبل أن نعرف التجريد فى علوم البلاغة أن فيها حذفا لئن لقيت فلانا لتلقين به الأسد الأصل لتلقين بلقائه أى بسبب لقائه الأسد فحذف لقاء وإنما كنت تلقى بلقائه الأسد لأنه شبيهه فلست تلقى بلقائه إلا أسداً ، وما الجمال فيه إلا من جهة أنه أعطاك التشبيه بطريق مكنى عنه لم يصرح به وأنه صوره بصورة الأسد حتى كأنك تحسه وتراه ولست تجد أحداً له ذوق فى البلاغة يفهم من هذه الأمثلة إلا ما قدمناه

وهو المعنى الذى يخطر لأول نظرة ولـكن علماء البلاغة يأبون إلا أن يجعلوه تجريداً وتوليـد شىء من شىء لم يلده وانتزاع شىء من شىء لم ينتزع منه .

ومن عجب أن هذا المعنى المتبادر قد شعر به بعض العلماء فذكره وأبان أن أمثلة التجريد مبنية على الحذف ، فأنـكره العلماء المتأخرون وقاوموه ودفعوا فى صدره حتى لم يبق إلا هذا المعنى السخيف الذى ينكره الذوق وينبو عنه الفهم ويجعل الأسد منتزعا من الشجاع والبحر متولدا من الـكريم وذلك مبالغة لـكمال هذه الشجاعة فى هذا الشجاع وكمال الـكرم فى هذا الـكريم .

ثالثا ـ رأيت اليوم حاتما ، ولقيت مادرا ، وسمعت سحبان ، وكان فى المجلس باقل — هذه مثل تدور على ألسنة المتكلمين ، والغرض منها التشبيه تشبيه الممدوح بحاتم فى الـكرم وبسحبان فى الفصاحة وتشبيه المذموم بمادر فى البخل وباقل فى الفهاهة ولـكن علماء البلاغة لايقتصرون على ذلك بل يتأولون فى حاتم فينزعونه من معناه وهو العلمية على الرجل المعروف من طىء ويجعلونه كأنه موضوع للجواد سواء أكان ذلك الرجل المعهود من طىء أم آخر غيره فبهذا التأويل يكون حاتم متناولا للفرد المتعارف المعهود والفرد غير المتعارف وهو من يتصف بالجود لـكن استعماله فى غير المتعارف يكون استعمالا فى غير ماوضع له فيكون استعارة .

وإنما فعلوا ذلك ليحافظوا على الأصل الذى وضعوه وهو أن الاستعارة تقتضى إدخال المشبه فى جنس المشبه به بجعل أفراده قسمين متعارفا وغير

School of Oriental Studies
of
The American University at Cairo

متعارف ولا يمكن ذلك إلا فى اسم الجنس ولا يمكن فى الأعلام لأن العلم وضع لذات مخصوصة لايتناول غيرها فلهذا ارتكب هذا التأويل فيجعل العلم اسم جنس ليمكن ادعاء دخول المشبه فى جنس المشبه به .

ويرد هذا الذى ذهب إليه البيانيون أنه ليس من أحد يتكلم بهذه الأمثلة يقصد هذا الذى قالوه ولا يفهم أحد ممن يسمعها هذا المعنى الذى ذكروه فما من أحد يقول رأيت اليوم حاتما ويدور بخلده أنه شبه ثم تأول حاتما فنزعه من العلمية وجعله كأنه موضوع للكريم الجواد وصار له فردان فرد حقيقى هو ذلك الجواد من طىء وفرد ادعائى هو ذلك الممدوح إلى آخر هذه السورة .

وليس أدل على فساد هذا الرأى من أنه دعوى لما لايخطر بذهن متكلم أو سامع فنحن نشرح أقوال المتكلمين بما يريدون ويعنون وكل هذه السورة لاتخطر إلا بأذهان هؤلاء البيانيين الذين اخترعوها .

ضع يدك على أى بليغ تختارة وسله ماذا يريد بقوله رأيت حاتما اليوم فانه يجيبك أردت تشبيه هذا الكريم بحاتم فى جوده وكرمه .

وسله أهو تأول فى حاتم وأراد منه مطلق جواد وأنه صار يشمل حاتم طىء وهذا الجواد الممدوح فانه ينفى ذلك كله ويقسم أنه لم يرد شيئاً من هذا ولم يرد إلا التشبيه بحاتم فى الجود .

على أنه إذا كان معنى حاتم الجواد فلا استعارة لأن الجواد يطلق على سبيل الحقيقة على الممدوح بخلاف أسد فى قولنا رأيت أسداً يرمى فانه لايطلق على الممدوح على سبيل الحقيقة فكان استعارة وهذا التكلف العظيم

ليحافظوا على أصل اخترعوه وهو أن الاستعارة تقتضى دخول المشبه فى جنس المشبه به وهذا الأصل أوردوا هم عليه اعتراضاً وهو أنه كيف يدعى دخول المشبه فى جنس المشبه به ويقيم القرينة لتدل على أنه أراد المشبه لا المشبه به وأجابوا بأنه بعد الادعاء صار للمشبه به فردان فرد حقيقى وفرد ادعائى والقرينة قامت لتنفى الفرد الحقيقى وتثبت الفرد الادعائى فدخلوا فى باب آخر من الإغراب لم يرده متكلم ولم يفهمه سامع .

ولعلكم تستعظمون هذا وتكبرونه وترونه أمرا هائلاً وسأخبركم بما هو أعظم منه وأشد هولا . إن هذه العلوم التى ندرسها ونسميها علوم البلاغة ليست علوم البلاغة وإن علم المعانى ليس علم المعانى وعلم البيان ليس علم البيان وإلى الآن لم يكشف عن حقيقتهما ولم يعرف موضوعهما ، ولم يتصورا تصورا يحدهما ويميزهما كما أنه لم تتصور البلاغة على حقيقتها فغلط فى مسائل البلاغة بقدر مافى هذا التصور من غلط وكنت أود أن أبين ذلك الآن ولكننى آثرت أن يكون ذلك موضوعا مستقلا أضع فيه مؤلفا أبين فيه كيف تصورها المتأخرون تصوراً غير مطابق للواقع وانبنى على ذلك أنهم حدوها حداً لايطابق الواقع وفرعوا على ذلك مسائلها فجاء فيها مالا يمت إلى علوم البلاغة بسبب ولا صلة .

أمنيـــــة

لقد استطاعت مصر أن تنجب الأدباء الذين يجذبون الأنظار اليهم ، ويشغلون الناس بهم ، والذين يجعلون الناس فيهم أقساما وشيعا فمنهم من يمدح هذا ويذم ذاك ، ومنهم من يخالف . ومنهم من يتعصب لطريقة هؤلاء ويزرى على طريقة أولئك ، ومنهم من يعكس فى الحكم ويخالف فى العصبية ، وبذلك وجدت حركة أدبية قوية ومدارس أدبية مختلفة .

ولكنها لم تستطع أن تنجب العلماء الذين يبدون الآراء العلمية فى نقد طرق التعليم وأساليبه ، وقواعد العلم ومسائله ، وأنظمة المجتمع وقواعده ويكسونها من الزينة واللابسات مايجذب اليها الأنظار ، ويشغل بها الناس ، ويفرق الناس فيها فرقا مختلفة ، ومدارس متباينة ، ينصر هؤلاء هذا الرأى بالحجج والأدلة ، ويخالف هؤلاء فيبطلونه بالحجج والأدلة ، ويخلقون فى الأمة الرغبة فى إدراك حقائق الأشياء ، وقوانين الوجود وفى البحث عن أفضل الوسائل لترقية التعليم والأخلاق وأصلاح المجتمع لتكون الأمة أسعد وأرقي وأبعد عن الشقاء .

بهذا تتدرج الأمة في مدارج الرقى ، وتترقى فى مراقى الخير والصلاح فما أحوجها إذن إلى أن تنجب هؤلاء العلماء .

لقد استطاعت أوربا أن تنجب هؤلاء العلماء فنقلوها من فوضى إلى

إلى نظام ومن جهل إلى علم ، ومن فساد إلى صلاح . وأخرجوها من العصور المظلمة إلى عصر النهضة والأصلاح ، وهذه المخترعات التى ينعم بها الناس هى من آثار عصر النهضة ومن آثار هؤلاء العلماء .

ولم يستطيعوا ذلك إلا بعد أن آمنوا بعلمهم كأيمان المؤمن بعقيدته ، وبعد أن أحبوه كما يحب المرء أهله ، وغاروا عليه كما يغار المرء على حريمه ، وآمن العالم منهم أن نظريته فيها الخير لأمته ، وهو حريص على أن يقدم لها من الخير مايستطيع .

إننى حريص على أن أبعث فى مصر هذه النهضة ، فهل أستطيع ، وهل كتب القدر الحكيم لمصر أن تبلغ هذه المنزلة الكريمة بين أمم النهضة والمدنية الحديثة ؟

إننى أدعو رجال التعليم فى مصر أن يجهروا بآرائهم التى يعتقدونها ، وأن يدعوا إليها ، وأن ينصبوا من الأدلة على صحتها ما استطاعوا وأن يؤمنوا بأن كلمة الخير لن تذهب سدى ، وأن الأمة لن ترقى إلا بخلع أساليبها الواهنة الضعيفة ، والاستعاضة عنها بأساليب أحق وأقوى ، وأن ذلك موكول إليهم ، وأمانة فى أعناقهم ، وأن الخير للأمة فى هذه الحركة والشر فى هذا الركود ، وترك كل ما كان على ما كان ، وأن واجبا عليهم أن يعملوا لأمتهم كل خير ، وأن يجنبوها كل شر ، هذا الواجب يوجبه الدين والخلق وأول مبادىء الاجتماع .

إنهم إذا آمنو بذلك كانوا حركة دائبة فى البحث والتنقيب والاختراع والاستنباط ، واقتراح الآراء التى يرونها ، ومناقشة الآراء التى يرفضونها ،

ولم يدعوا رأيا يظهر ، أو اقتراحا يقترح ، إلا وكان لهم فيه صوت ، فإن وافق مايعتقدون نصروه ، ودافعوا عنه ، وأقاموا من نصرته ماعساه أن يكون ند عن صاحبه ، وإن خالف مايعتقدون أبانوا ضرره وبطلانه ، وأقاموا ما استطاعوا من الحجج على فساده ونفروا قومهم منه ، وأبانوا مافيه من زيف ونقص .

بذلك يستطيعون أن يخلقوا فى مصر نهضة تحاكى ماكان فى أوربا من تلك النهضة التى يجنى العالم ثمارها اليوم .

وإنى لحسن الظن برجال التربية والتعليم فى مصر ، وأرى أن فيهم ما شرحت من خلال ، وأن الأمر لايحتاج إلا إلى مثل هذا التذكير .

ولقد كتبت هذا البحث ، وقدمت هذا الاقتراح فى تعليم اللغة العربية وأذعته بينهم ، وإنه لاختبار سريع ، وفى يقينى أن هذا الاختبار سيسفر عن أننى لم أكن مسرفا فى حسن الظن .

ووزارة المعارف ، والجامعة الازهرية ، وجامعتا فؤاد وفاروق وجميع هيآتنا الثقافية العليا تحمل فى عنقها الأمانه المقدسة ، التى سيكون فى أدائها مجد مصر ونهضة الشرق .

محمد عرفه

٥ من ربيع الثانى سنة ١٣٦٤
١٩ من مارس سنة ١٩٤٥

ولم يدعوا رأيا يظهر ، أو اقتراحا يقترح ، إلا وكان لهم فيه صوت ، فإن وافق مايعتقدون نصروه ، ودافعوا عنه ، وأقاموا من نصرته ماعساه أن يكون ند عن صاحبه ، وإن خالف مايعتقدون أبانوا ضرره وبطلانه ، وأقاموا ما استطاعوا من الحجج على فساده ونفروا قومهم منه ، وأبانوا مافيه من زيف ونقص .

بذلك يستطيعون أن يخلقوا فى مصر نهضة تحاكى ماكان فى أوربا من تلك النهضة التى يجنى العالم ثمارها اليوم .

وإنى لحسن الظن برجال التربية والتعليم فى مصر ، وأرى أن فيهم ما شرحت من خلال ، وأن الأمر لايحتاج إلا إلى مثل هذا التذكير .

ولقد كتبت هذا البحث ، وقدمت هذا الاقتراح فى تعليم اللغة العربية وأذعته بينهم ، وإنه لاختبار سريع ، وفى يقينى أن هذا الاختبار سيسفر عن أننى لم أكن مسرفا فى حسن الظن .

ووزارة المعارف ، والجامعة الازهرية ، وجامعتا فؤاد وفاروق وجميع هيآتنا الثقافية العليا تحمل فى عنقها الأمانه المقدسة ، التى سيكون فى أدائها مجد مصر ونهضة الشرق .

محمد عرفه

٥ من ربيع الثانى سنة ١٣٦٤
١٩ من مارس سنة ١٩٤٥

ARY
DATE DUE
16 MAR 1972
7 MA
PJ
6066
A7
1946
main
00000081970
PJ 6066 A7 1946/c.1
-DEC 1986
TiFFEN Color Control Patches © The Tiffen Company, 2007
Blue Cyan Green Yellow Red Magenta White 3/Color Black
Inches 1 2 3 4 5 6 7 8
Centimetres 1 2 3 4 5 6 7 8 9 10 11 12 13 14 15 16 17 18 19